شـــــــادي

(روايـــــة)

تأليــف

إيمـــــان خليـــــل

السَّعيد
للنـــشر والتـــوزيـــع

اسم الكتاب / شادي

الكاتبة / إيمان خليل

الطبعة الأولى 2019

تصميم الغلاف : محمد محسن

المراجعة اللغوية : إيمان خليل

رقم الإيداع : 2019/20608

الترقيم الدولي: 0 - 67 - 6727 - 977 - 978

التصنيف: رواية

الناشر : السعيد للنشر والتوزيع

المدير : لميـــاء السعيـــــد

برج الهادي – الدور الأول - 36 ش عبد الحميد الديب – شبرا مصر

01550096215 - 0222017260

elsaidpublisher@gmail.com

إهـــــداء

إهداء إلى فيروز...

على مدار سنوات شاركني صوت فيروز كلّ صباحاتي.

زرع صوتها السلام والأعاصير في قلبيّ.

فيروز هي سرّ مزاجي (الرايق) كما يراه البعض أو مزاجي (الحزين) كما يراه البعض الآخر.

فيروز هي..

صوت الحنين

ترنيمة السلام

زمن الحلم

مقدمـــــة

لطالمـا اعتقـدت أنّ العلاقـات الخطـرة هـي العلاقات التـي تملأها الحـروب والنزاعـات العاطفيّـة والفكريّـة، العلاقـات التـي تفـوح منها رائحـة الخيانـة أو تشـيخ بها المشـاعر فـي ربيع العمـر، حتّى اكتشـفتُ أنّ بعـضَ العلاقـات قـد تدفعـك إلـى الجنـون فـي صمـت، بعـض العلاقات تبـدو هادئـةً ومُسـتقرّةً ولكنّك أبـدًا لا تـدري بأنـك تُقتل كلّ يـوم وكأنَّـك تستنشـق غـازًا سـامًا دون أن تـدرك، بعـض العلاقـات تطفـئ الضـوء بداخلـك، تظـن بـأنّ الشـمس فقـط قـد غابـت وأنَّهـا ستشرق لا محالة، حتّى تكتشف فجأة أنّك انطفأت.

لـم أدرك يومًـا بـأنّ هنـاك أشـباه حيـاة، وأشـباه حـبّ، وأشـباه فرح... وصفـات مزيّفة تشـرح لـك كيف تعيـش الحياة؟ كيـف تلتئم جراحك وكأنَّها تعلمك كيف تنزف في صمت؟

الـكلّ يدّعـي المثاليّـة، يشـكو التخبـط فـي الأمـس، يتعجّـب من الظلـم والهجـر، ولا أحد يعلـم بأننـا جميعًا مذنبـون، جميعًـا نتحمّل مسؤولَية هذا الحزن.

***

للبدايـات سـحرٌ خـاصٌ يختطفـك مـن الواقـع، البدايـات بـذرة الخيـال تنمـو بداخلنـا لتخلـق عالمًـا افتراضيًّا مـن الحلـم، البدايات دومًـا مُشـرقة؛ لأنّ كلّ مـا يليهـا تصنعـه أنـتَ مـن وحيـك، تظـلّ تُخطّط كيـف سـتولد الحكايـة من رحـم البدايـة، تُفكّـر في اسـم لها فـي هيئتها فـي تحركاتها، وتحتفـل بهـا كمولـودك الأوّل، تنتظر أولى كلماتـه أوّل ابتسـاماته، ولوهلـة تظـن بأنـك تملـك مفاتيـح الحكاية بأكملها، وهذا ما توهّمته أنا وأنتم يومًا.

اسمي (سارة)!

لـم تمنحنـي الحيـاة فرصةً لأسـأل أهلـي لماذا اختـاروا هذا الاسـم دون غيـره؟! ومـاذا كانـت تعني لهـم سـارة، أعتقد أنّـه سـحر البدايات مـرّة أخـرى! لحظـة ميـلادي عندمـا حلـم بالأسـرة السـعيدة، والبنـت الشـقيّة التي سـتضفّر أمّها شـعرها كلّ يوم قبـل الذهاب إلى المدرسـة، وتحكي لهـا حكايـة قبل النـوم عـن الأميـرة المسـحورة لتخبرهـا بأنَّها أجمل مـن الأميـرة، وعـن اللحظـة التـي سـيمنحان جوهرتهمـا الغالية إلـى فـارس الأحـلام، لـم يُـدركا أنّ أحلامهمـا لـم تكـن سـوى نشـوة البدايـات وأنّ عليهمـا الرحيـل إلى عالـم آخر ربَّمـا أكثر صدقًـا، ولكنّه بلا سارة.

كنـت فـي الخامسـة مـن عمـري.. لا أتذكّـر الآن سـوى ملابـس الحـداد، وبعـض الضجيـج فـي المشـفى، ودمـوع جدّتـي، وهرولـة أقاربـي، كنت أتلفّـت حولي ولا أفهـم ماذا يحـدث؟ وفي بـراءة طفلة

كنت أنتظر فقط العودة إلى البيت لأشاهد الكارتون، كنت أنتظر أمّي وأبي حتّى يعودا، لم أدرك وقتها أنّ كلّ هذه الفوضى (حيث كنت أراها وقتها) كانت من أجلهما، لم أدرك وقتها أنّ أمامي عمرًا كاملًا أشاهد فيه الكارتون قبل أن يعودا.

عشت بعدها مع جدّتي الصماء وحدنا في هذا المنزل الكبير، كنت أكره البيوت الكبيرة، كنت دائمًا أشعر أنّ هناك علاقةً عكسيّة بين حجم المنازل وسكّانها، فالبيوت الصغيرة يملأها الدفء، عكس البيوت الكبيرة التي في الأغلب يرحل كلّ من يسكنها مع الوقت.

بالرغم من صغري ولكنّي كان يؤرّقني وجودي مع جدّتي في مكان واحد، كنت أتساءل كيف سأتعامل معها وحدي وهي لا تسمعني؟! فقد كانت علاقتي بها لا تتعدي الزيارات الأسبوعيّة ولكنّي أدركت الجانب المشرق بعد ذلك، فأنا بإمكاني الصراخ متى شئت دون أن يشتكي أحد أو يعلم.

كانت أمّي ابنتها الوحيدة، ودائمًا ما كانت تخبرني جدّتي بأنّي أشبهها في كلّ شيء، لون بشرتي البيضاء، شعري الأسود، هدوئي وحبّي للكتابة، لا أذكر الكثير عن أمّي، ولكنّ جدّتي كانت تؤكّد لي دومًا أنّها أحبتني.

أمَّا أبي فلا أحد حدّثني عنه، لا أملك عن سيرته شيئًا سوى بعض الصور مع أمّي، لا بُدَّ من أنّه كان يحبّها كثيرًا، ابتسامتهما

كانـت صادقـة، عناقـه لهـا، نظـرات عينيـه كان دائمًـا ينظـر إليهـا في حبّ في كلّ الصور!

عشـت سـنوات طوال أتواصل بالإشـارات فتعلّمـت الصمت عن ظهـر قلـب، وتعلّمـت هـي أن تقرأني أيضًـا في صمـت، كنـت هادئة كفجر شتاء بارد.

كان لجدّتـي وجـهٌ بشـوشٌ دائمًـا ورائحـةٌ تشـبه المسـك، كنـت أشـعر معهـا بـدفء الأهـل الـذي حرمـت منـه، أحبتنـي كثيـرًا ربَّمـا لأنها كانـت ترى بـي أمّـي التـي فقدتهـا، أو ربَّمـا لأنَّهـا كانـت كثيرًا مـا تشـعر بالشـفقة علـيّ، أذكـر رسـائلها اليوميّـة التـي كانـت تكتبها لي كلّ صباح في أيّام الدراسة فور استيقاظي:

– هـا قد أشـرقت شـمس يـوم جديـد.. ولكـنّ شمسـي مـا زالت نائمة.

– كيـف لـم توقظـك رائحـة القِرْفَةِ بعـد.. فقـد سـكبت العلبة في فطورك.

– إن كنت تنتظرين قبّلة الأمير فلن تلحقي المدرسة اليوم.

والكثيـر مـن الرسـائل التي كنـت أبدأ بهـا يومـي بابتسـامة، كانت تنهـي رسـائلها القصيـرة دومـا بأحبّـك، فأتّجـه إليهـا فـي المطبـخ أقبّلها وأفطر معها في انتظار باص المدرسة.

فـي المدرسـة.. كنـت طفلـة خجولـة ربَّمـا كان يرانـي البعـض غريبة الأطـوار، خاصـةً عندما كانـت تُمشّـطني جدّتي لأظهـر وكأنّي

قادمة من القرن التاسع عشر.. كنت أحتضن دومًا كتابًا معي وكأنّه حصن أو مهرب من الوقوع في أيّ حديث بلا معنى مثل: ماذا يعمل والدك؟ مسكينة... كيف تُوفي؟ ما سرّ تسريحة شعرك؟ كيف تتعاملين مع جدّتك؟

وقد يزداد الوضع حماقةً خاصة في سنّ المراهقة، عليّ ترويج الإشاعات والأسئلة الغريبة مثل: هل تعلمين أنّ ميّ تحبّ مُدرّس الكيمياء؟ لماذا تنورتك طويلة هكذا؟ هل لاحظت أنّ عماد كان ينظر إليك عندما كنتِ تتناولين وجبتك؟

لم أكن أكترث بحبّ ميّ أو بمدرّس الكيمياء أو حتّى بنظرات عماد رغم ملاحظتي لها، فربَّما كان جائعًا وقتها! فهو لم يُحدّثني قط ربَّما كان يخشاني مثل الكثير من الأولاد في المدرسة.

لم أكن أكترث أن البس تنورة قصيرة أو أضع مساحيق التجميل كي ألفت الانتباه، كنت فقط أنتظر انتهاء اليوم الدراسي حتَّى أعود هاربة إلى جدّتي.. إلى غرفتي.. عشت عمرًا طويلاً بين جدران تلك الغرفة، أتصوّر عالمًا بالخارج لا أدري عنه شيئًا.. كانت الكتابة ملاذي الأوّل والأخير، كنت أكتب أحلامي على ورقات صغيرة حتّى صنعت منها شجرة، شجرة الأحلام، كنت أطوّقها بشرائط من الأضواء الخافتة، أنظر إليها كلّ ليلة حتّى أغفو.. وكنت أنت أوّل ورقة في أحلامي!!

(كنْ خيالًا في قبحِ الواقع.)

***

أتذكّر تلك الحكمة القديمة (احذر ما تتمنّى) فبعض الأمنيات تحمل لنا من الأسى ما لا ندركه، بعض الأمنيات بمثابة رصاصة نصوبها مباشرة نحو قلوبنا، نظنّ بحماقة أنّ الحياة تبتسم، وهي تكشف عن أنيابها، نظن أنّ حقول الياسمين قد تفتحت في دروبنا، وأنّ النيران المشتعلة ستبعث بنا الدفء دون أن تلتهمنا، وكأننا نرتشف الخمر لنروي عطشنا، شجرة الأحلام كانت بمثابة شجرة التفاح التي أغرت آدم ودفعته للخروج من الجنة!

كنت في طريقي إلى الجامعة في قطار السادسة صباحًا المتّجه إلى الإسكندرية، كنا في بداية شهر يناير وكان البرد بداخلي أقوى من البرد في الخارج، احتضنت حقيبتي وأسندت رأسي على النافذة أراقب الطريق كما اعتدت كلّ أسبوع وعلى مدار السنوات الثلاث السابقة، حياة الجامعة لم تختلف كثيرًا عن حياة المدرسة، ربَّما كُنت ما زلت أبدو غريبة الأطوار للبعض.

في البداية كانت جدّتي تقترح أن أبقى في النُّزل الخاص بالجامعة محاولةً منها لتخرجني من عُزلتي وصنع صداقات ولكنّ هذا آخر ما كنت أريد.. قمت بإيجار شقة صغيرة وحدي بالقرب من ستانلي، كانت شقتي مكوّنة من غرفة نوم وحمام واستقبال صغير يحتوي على كنبة مودرن وتلفاز لم يفتّح يومًا ومطبخ على الطراز الأمريكي، ونافذة ترى البحر من إحدى

الزوايا.. كان إيجارها أغلى من شقة لطالبة، ولكنّ المبلغ الذي ورثته من أبي كان كافيًا لتغطية المصاريف طوال فترة دراستي.

أضفت مكتبة صغيرة في غرفتي تحتوي على أكثر الكتب قربًا لقلبي.. زرعت بعض النباتات على النافذة، ربَّما لإضافة حياة للمكان.. وضعت صورة أبي وأمّي بجوار سريري لتبعث بعض الدفء في الغرفة، في البداية كنت أحبّ شقتي كثيرًا.. ولكنّ الأمر قد تغيّر بعد ذلك!

وقت السفر، دومًا كنت أسبح في خيالي، أعود إلى الماضي، أحاول أن أتذكّر أيّ شيء عن أمّي وأبي، لكن كانت تنتهي محاولتي دائمًا في ذكريات المشفى!

كنت أتعجّب كيف يمكن أن نفتقد أشياءَ لم نعشها أو أناسًا لم نعشهم؟ أحيانًا كنت أخلط بين الذكرى والحلم، فلم يكن لديّ مخزون ذكريات يكفي لملء الفراغ في قلبي، فكنت أخلق ذكريات مزيفة كفرخ بلا روح فقط لملء العش.

شعرت فجأةً وكأنّ القطار توقّف.. تغيّر الهواء من حولي، سكون غامض، توقّفت معه كلّ مظاهر الحياة من حركة الأطفال من أحاديث الركاب، حتّى شخير ذاك العجوز خلفي لم أعد أسمعه!

رأيته لأوّل مرّة لا أدري من أين أتى؟ أو كيف أتى كشهاب سقط فجأة من السماء!

كانت له هيئة رجل مهمّ ببدلته السوداء وربطة عنق رماديّة.. شعر بني داكن ممشط للخلف وذقن قصيرة كان وسيمًا للغاية، كإحدى تلك اللوحات المرسومة بعناية دقيقة كتلك اللوحة الخياليّة لدوريان جراي، لكن دون ذنب واحد يشوهها، كانت له هيئة رجل في الثلاثين، ولكنّ ملامح وجهه كانت توحي بأنه أكبر سنًّا!

اقترب منّي وهمس بهدوء: هل تسمحين لي بتغيير مقعدي، فهناك الكثير من الضوضاء ولا أستطيع التركيز، نظرت في عينيه، وشعرت فجأة بقبضة في قلبي، كانت عيناه غامضة رُماديّة كسماء ملبّدة بالغيوم بدت لي في لحظة بئرًا من الأسرار، سرحت طويلًا قبل أن أجيب بصوت يكاد لا يسمع: بالتأكيد تفضّل.

استنشقت عطره وكان مزيجًا من العود والزهور البريّة، قلت لنفسي: (هذا العطر يوحي برجل شرقي متحرّر) بعد قليل نظر إليّ وبابتسامة مشرقةٍ كزهرة تفتحت للتو سألني:

هل تعلمين لماذا يُشبّهون الحياة دومًا بالقطارات؟

قلت لنفسي كم هي بداية ذكيّة لفتح حديثٍ ولفت الانتباه؟

ربَّما لأنّها تمر مُسرعةً دون أن نشعر.. أجبته وفي داخلي رعشة غامضة لا أفهم معناها، بل ربَّما لأنَّها محطات انتظار بين الوصول والرحيل، هنالك وقت للوصول وآخر للرحيل، وهناك مَن ينتظر على الأرصفة، فقط ليستقبل غائب أو يلوّح مودعًا!

لم أدرِ ماذا كان يعني وقتها! اكتفيت بابتسامة للردّ.

مدّ يديه وعرّف نفسه: شادي.

مددت يدي وشعرت للحظة بأني أتساقط في عينيه كورقة خريف: سارة.

شعرت وكأنّ يده لمست روحي، وتساءلت بداخلي أيّ نوع من الأقدار هذا الذي يجذبنا لشخصٍ واحدٍ دون العالم من صوته، من عينيه، من عطره، من هيئته الغامضة!

يقولون إنّ الجالس بجوار النافذة دومًا وقت السفر هو آخر مَن يعرف الطريق! سحب يده وأكمل حديثه، ربَّما لأن سرعة المشهد من القطار تعبث بذاكرتنا فنجد أنفسنا دومًا وقت السفر نحّن لشيء ما!

الحنين لا يحتاج قطارًا ليكشفه، الحنين إحساس مزعج، يدقّ ناقوسه في أيّ وقت دون إنذار، أجبته وأنا أفكر في حنيني لأهلي الذي لم يتركني طوال السنين الماضيّة كجُرح لم يلتئم أبدًا حتّى وإن وقف نزيفه.

ربَّما أنتِ مُحقّةٌ، أتذكّر محمود درويش: (الحنين وجع عشوائي لا يستأذن من أحد) فهو يلحقنا في أيّ وقت، ولكنّ الليل هو وقته المُفضّل ليلحق بنا فنذكر ما كنا نظن النهار قد محاه.

أنا دومًا ما أحن إلى موطني المغرب، فقد انتقلت إلى مصر منذ خمسة أعوام للعمل في السفارة، لم أنسَ أبدًا سِحر المغرب.

إذن أنتَ تعيش في الإسكندرية منذ خمس سنوات؟ سألته.

شعرت بارتباكه قليلًا قبل أن يُجيبني:

السفارة في القاهرة ولكنّي أحيانًا اضطر للسفر إلى الإسكندرية لإنجاز بعض المهامّ في القنصلية.

ابتسمت وساد صمت لحظةً كأنَّها دهر.

ماذا تدرسين؟ سألني ربَّما محاولةً منه لكسر الصمت.

طبّ أسنان.. أجبته.

رائع، ربَّما سأحتاجك يومًا لإصلاح أسناني، وابتسم وكأنَّه يخبرني بأنّ لديه أروعَ ابتسامة، وأنه لن يحتاجني أبدًا كما يدّعي.

بالطبع يُسعدني ذلك.

كان اقترابه جريئًا.. سألني الكثير عن حياتي، ولكنّي وجدت نفسي أجيبه دون خوف؛ بل كنت انتظر سؤاله المقبل.

اقترب القطار من المحطة أسرع من أيّ وقت!

لم أشعر بالوقت معكِ! هل تعلمين بأنّ أصدق الأحاديث هي التي تدور بين المسافرين.. ربَّما لأنّ رؤية شخص لا تعرفه لوقت قصيرٍ مُؤقّتٍ يجعلك تشعر بالراحة أكثر في الكلام معه، لا بُدَّ من أنّك محظوظة لأنّ لديك تلك الفرصة كلّ أسبوع!

شعرت بالغضب قليلًا لما قال، ولا أعرف أيّ جزء أثار غضبي أكثر، أنّي شخص مؤقت أم أنّي لديّ الفرصة كلّ أسبوع للتحدّث إلى شخص لا أعرفه!

حاولت أن أجيبه دون أن أظهر غضبي:

قد تكون مُحقًّا! ولكنّ التعرّف إلى أناس جديدة ليس من اهتماماتي، فأنا قلما ما أتحدّث إلى راكبٍ بجواري.

شعرت بخجله ثُمَّ أجابني بصوت رقيقٍ وكأنَّه يحاول تهدئتي ربَّما شعر بغضبي:

أعتذر إن كنت أقحمت نفسي على الحديث معك! أما بخصوص التعرّف إلى أناس جديدة فأعتقد أنّه لشيءٌ ممتعٌ، كما أنّه يزيد من خبرتكِ في الحياة، ومع الوقت يسمح لك بقراءة الأشخاص بشكلٍ أسهل، لقد تعلّمت ذلك من طبيعة عملي!

أجبته محاولةً تلطفة الحوار:

لم أقصد أنّك أقحمت نفسك إطلاقًا، بالعكس أنت تبدو شخصًا لطيفًا، وأنا سعيدةٌ بالتعرّف عليك، لكن لا تسير الأمور هكذا دائمًا.

كيف لكِ أن تعرفي إذا لم تمنحي نفسك الفرصة، هناك أشياءُ كثيرةٌ في الحياة تغلقي عينيك عنها!

أجابني وهو ينظر مباشرة في عيني وكأنَّه يقرأني أو أنّه يعرفني بالفعل، ولا أدري لماذا شعرت بالخوف قليلًا، ربَّما لأنّي لم أمنح أحدًا تلك المساحة في الحديث معي من قبل.

لا أعلـم ولكنّـي دومًـا مـا أشـعر أنّ النـاس قـد تمنحنـا الكثير من الوجـع، لذلـك أحـاول دائمًـا أنّ أحـدّد دائـرة علاقتـي مـع كلّ مَـن حولي، وأشـعر بالكثير مـن الراحة فـي عزلتـي.. باختصـار «الجحيم هو الآخر» كما قال الفيلسوف جون سارتر.

تعجّبـت نفسـي مـن ردّي عليـه لم أكـن بمثـل هـذا الصـدق عمَّا يـدور فـي قلبـي مـع أحـد حتَّـى مـع نفسـي وكأنَّـه قـد نومنـي مغناطيسيًّا ففتحت قلبي على مصراعيه.

سـارة.. هـذا ليـس صحيحًـا، نحـن جـزءٌ مـن النـاس الذيـن نتحـدّث عنهـم دائمًـا بأنّهـم سـببُ أوجاعنـا.. ليـس هنـاك ملائكـةٌ وشـياطينُ علـى الأرض، بداخـل كلّ منـا فطـرة الخيـر وبذرة الشـرّ، قد تنمـو تلك البـذرة فتضغـى أحيانًـا، لكن تظـلّ الفطـرة بداخلنا هي الخيـر، هـل تعلميـن مـاذا كان ردّ ابـن سـينا حيـن سُـئل عـن سـبب وجـود الشـرّ فـي العالـم؟ (مـا كان منزهًـا عـن كلّ شـرّ لـن يكـون مخلوقًا بـل خالقًـا، أمـا العالم المـادي فـلا مفـر إلا أن يكـون ناقصًا قابلًا إلى أن يُساكنه الشر).

وصـل القطـار قبـل أن أجيبـه، وصراحـة القـول لـم أكـن لأعلـم بمـاذا أجيبـه، فهـو يبـدو أنّ لديـه حجّـةً قويّـةً لكلّ شـيء! ولـم أكن مُستعدّة للخوض في معركة عن فلسفة الخير والشرّ!

ها قـد وصلنـا، هذا الـكارت بـه أرقامـي إن احتجتِ شـيئًا، سـارة لا تتـردّدي أن تحدّثينـي فـي أيّ وقـت، مـن الصعب الحصـول على أصدقاءَ خاصةً بعد الثلاثين! قالها شادي بابتسامة عذبة.

قلت لنفسي (يا لك من جذّاب كاذب)!

أخذت الكارت بابتسامة وأجبته: بالتأكيد من الممتع مصادقة الدبلوماسيّين، فهم لديهم كلّ مفاتيح الكلمات.

تقصدين يجيدون الكذب.. قالها ثُمَّ ضحك.

لا لم أقصد فقد سعدت حقًّا بالحديث معك.. قلتها بارتباك ملحوظ.

أمزح معك أتمنّى لكِ يومًا رائعًا وغادر مُسرعًا نحو الباب

جلست للحظة قبل أن أدرك أنّي لا بُدَّ أن أغادر أنا أيضًا!

***

يقال إنّ السحر نوعان أبيض وأسود، السحر الأبيض الذي يستعمله الشخص للاستفادة من قدرته في الخير، والأسود ما يشتمل مجموعة من الطقوس والطلاسم لإخضاع القوى الشريرة والغامضة، فأيّ نوع من السحر أنت؟!

فأنا لم أشعل الشموع وناديتك من أقصى الأرض! ولم أصنع تعويذةً وأحرقت اسمك في رسمة قلب!

قد يحتاج السحر دقائق كي يبدأ وعُمرًا كي ينتهي.. وها هو سحرك قد بدا أسرع مما توقّعت.

أتذكّر تلك الليلة بعد لقائنا الأوّل، كانت عيناك تحاصرني في غرفتي، أغمضت عيني لأهرب إلى النوم، ولكنّ صوّتك ظلّ

يتـردّد فـي أذنـي كلحـن لا ينقطـع، شـعرت بلمسـة يـدك، شـممت عطرك في وسادتي! أحقًا يمكن أن تكون هنا معي؟!

كان وجـودك قويًا أقـرب إلى الواقـع، وكأنَّه جـزءٌ موجـودٌ بالفعل فـي حياتـي، ولكنّي لـم أدركه مـن قبل، كلّ شـيء فـي الغرفـة كان له أثرك.. تُـرى أيّ نـوع مـن الرجال أنـت؟ كي تقتحـم عزلتـي وتحطم جـدران صمتـي.. كـي تخرجنـي مـن شـرنقتي.. كـي ينبـض لـك قلبي.. هذا العضو الصغير الذي قد تناسيت وجوده في جسدي.

تلـك الليلـة لـم يكـن النـوم أمـرًا سـهلًا.. بعـد عـدّة محـاولات رأيتك مـن جديـد فـي قلعـة ضخمـة، وبالرغـم مـن روعـة تصميمها، ولكنّهـا كانـت تبـدو مهجـورة منـذ قـرون.. يحيـط بهـا الظلام مـن جميـع الاتّجاهـات.. يـرأف بهـا القمـر فيلقـي بظلالـه عليهـا.. تظهـر ضبابيّة وسـط الجبـال تمامًـا كصورتك في عقلـي الآن، اقتربـت عندما لمحتك تبتسـم لـي في تلـك النافـذة أعلـى قمتهـا.. اقتربت أكثـر نحو البوابة حين سـمعت صـدى صوتـك تناديني.. فزعت وابتعـدت قليلًا حين رأيت العناكب تدور حول المقبض الخشبي الكبير.

نظرت فوقـي إلـى النافـذة ابحث عنـك فلم تكـن هنـاك.. اهتزّت الأرض فجـأةً مـن تحـت قدمـي.. ركضـت كثيـرًا ولـم أدرِ إلـى أين اتّجـه.. اسـتيقظت علـى صـوت صرختـي.. نظـرت إلـى الغرفـة في فـزع وقلبـي ينبـض بقـوّة.. كانـت السـاعة الثالثـة صباحًـا.. شـعرت بالكثيـر مـن اليـأس فهـا قـد عـادت الكوابيـس تراودنـي مـن جديد، لكن بشكل أسوأ من ذي قبل.

لم أستطع النوم مُجدّدًا تلك الليلة ولا أدري كم مرّ من الوقت حتّى أشرقت الشمس، وأصبح بإمكاني الهرب وسط الدفاتر والطلبة وصخب الحياة.

ذهبت للجامعة بعد ليلة طويلة، وللحظة شعرت بحماقتي، وظللت أردّد لنفسي أنّه مجرد عابر وأنّ لا شيء يستحق كلّ هذا الاهتمام.

بعد الانتهاء من المحاضرات والمرضى، وقفت بالخارج انتظر تاكسي وأنا مُنهكة من شدّة التعب، حتّى لمحت رجلًا من بعيد يرتدي بدلة سوداء ونظارة شمسيّة داكنة بالرغم من أنّ الشمس كانت مختبئة خلف السحاب.

تسمرتُ في مكاني لحظة، هل يمكن أن أكون قد وصلت لهذه الحالة من الهذيان!

اقترب أكثر نحوي! إنّه هو.. شادي.

شعرت بضربات قلبي تتسارع ومن جديد توقف كلّ شيء حولي.. أصوات السيارات، وصخب الشارع، وأحاديث الطلاب، كيف لحضوره أن يوقف كلّ مظاهر الحياة من حولي ويبقي هو إحساسي الوحيد بالبقاء!

اقترب منّي أكثر وبابتسامته الهادئة القادرة على قلب موازين الكون دون رفة عين: سارة! صدفة غريبة!

أجبته وقد ابتلعت كذبته بفرحة خفية: أهلا شادي، حقًا صدفة غريبة جدًّا!

كنت أبحث عن مطعم بالجوار رشحه لي صديق، أتمنّى لو نتناول الغذاء معًا إذا لم يكن لديكِ مانع.

سكتُ لبرهة ثُمَّ أجبته وقد نسيت إحساس التعب: لا مانع فأنا جائعةٌ بالفعل.

مضينا معًا وكان بداخلي إحساسٌ غريبٌ، إحساسٌ لطالما غبطت زميلاتي عليه في صغري، حين كان ينتظرهم أحد من أهلهم عند انتهاء اليوم الدراسي، ذلك الإحساس بالانتماء لشخص ما.. شخص ما يترقّب ميعاد خروجك.. شخص ما يبحث عن وجهك وسط الحشود.. شخص ما في انتظارك!

يقول نزار قباني عند اللقاء الأوّل:

لا تستمع لأيّ أغنية، ولا تضع أيّ عطر، وإياك أن تحبّ المكان كثيرًا، ولا تسأل عن السبب.

وقد عرفت السبب!

***

أتذكّر ابن القيّم حين قسّم الأرواح إلى أرواح مُعذّبة وأخرى مُنعّمة، الأرواح المُعذّبة لا تلتقي على عكس الأرواح المُنعّمة التي تبحث عن بعضها في العالم الآخر!

أعتقـد أنّ الأمر مختلـفٌ في الحيـاة، فـالأرواح المُعذّبـة هي التي تبحث عـن بعضها لتجـد راحتهـا، لطالمـا آمنت بـأنّ هناك بُعـدًا آخر تتحرك به أرواحنا فتلتقي قبل أجسادنا.

ربَّما التقينا من قبل!

كان اختيـاره للمطعـم رائعًـا، أو اختيـار صديقـه كما يدّعـي، كان في الـدور الثالـث، والبحـر أمامنـا كمـرآة تعكـس شـغفي وارتباكي، كانت الشـمس على وشـك الغروب وأسـراب الطيـور تُحلّـق فوقنا.. وعـازف البيانـو يعـزف أغنيـة فيـروز (بديـت القصـة فـي أوّل شـتا، تحت الشتا حبوا بعضن)!

هنالـك إشـارات خفيّـة لا نراهـا وربَّمـا لا ندركهـا فـي وقتهـا، ولكنّهـا كحروف ينثرهـا القدر فـي كلّ درب نخطـوه، فـإذا اقتربنا من النهاية تتشابك الحروف لتصنع كلمة بها حلّ اللغز.

شـكرًا علـى قبـول دعوتـي.. قالهـا شـادي بابتسـامة شـعرت صدقها.

شكرًا لك، اختيار صديقك جيّد!

فعـلًا، رائحة البحـر هنـا تُذكّرني بشـواطئ طنجة بالمغـرب، نفس البحر؛ ولكنّ كلّ شيء مختلفٌ.

أحسست بشجن خفيّ في صوته!

ألم تعتد الحياة هنا بعد؟ سألته.

الإنسان كائن قادرٌ على أن يتعوّد كلّ شيء يقول دوستويفسكي، ولكنّ حنيني للوطن لا يفارقني، لم أزر المغرب منذ أكثر من عامين تقريبًا، وأنتِ إلى أين يحملك الحنين؟ سألني شادي.

حنيني مختلفٌ عنك، فأنا أحنّ لحياة لم أعشها بعد!

نظر طويلاً في عيني وكأنَّه يحاول قراءة أعماقي، كان في عينيه الكثير، الكثير من الغموض.. الحزن.. الدفء.. وكنت أودّ لو أسأله إن كنّا التقينا من قبل في عالم آخر! عالم كنا ننتمي به لبعض.. سألته عن حياته في المغرب، شعرت به ارتبك قليلاً ثُمَّ بدأ الحديث.

المغرب بلدٌ رائعٌ، لقد زرت الكثير من البلدان، ولكنّ المغرب كان له دومًا الأثر الأكبر في قلبي، أحيانًا أشعر بأنّ هناك سحرًا ما يلقي علينا حين نُولد ليجعل الوطن جزءًا منا لا يختفي مهما ابتعدنا عنه، خاصةً وقت الموت نشعر وكأنّ تراب الوطن هو الوحيد القادر على أن يحتوينا، ربَّما سمعتِ كثيرًا عن مهاجرين قضوا حياتهم بأكملها في دولٍ أوروبيّةٍ، ولكنّهم دومًا يتمنون أن يدفنوا بأوطانهم، وكأنَّهم يخشون أن تظلّ أرواحهم مهاجرة مثلهم بعد الموت ولا ترى الوطن أبدًا.

أنت محقٌ شادي، لكنّي ربَّما لا أفهم كثيرًا ما تعني لأنّي لم أغادر مصر قط.

ألم تحلمي يومًا بزيارة أيّ بلد آخر؟ وتكتشفي ما يدور حولك في العالم؟ سألني شادي.

بالطبع تمنّيت ذلك، لكن لم تكن هناك فرصة، ولم أعلم أيّ البلدان تستحق الرحيل إليها، لا يوجد بلد لا يستحق الزيارة، لكلّ بلد أسراره الخاصة وجماله الخاص حتّى أفقر دول العالم تستحق الزيارة.

هل عمرك وقعت في الحبّ؟ سألته في خجل.

فوجئ من سؤالي وسرح قليلًا قبل أن يجيبني.

نحن دومًا في حالة حبّ، حتّى وإن لم يكن هناك مَن يُبادلنا هذا الحبّ، عندما نستمع لأغنية عاطفيّة عندما نقرأ روايةً رومانسيّةً، كلّ شيء يملأه الإحساس يلمسنا من الداخل، فحتّى الذين يدّعون عدم إيمانهم بالحبّ هم أكثر الناس حاجة إليه، هنالك نقطة هشّة في كلّ واحد منا تقوّى بالحبّ وتتمزّق بالفراق.

وهل وجدت مَن يُبادلكَ هذا الحبّ يومًا؟ حاولت أن أحاصره أكثر بسؤالي حتّى لا يهرب تلك المرّة.

ضحك كثيرًا ثُمَّ قال لي:

كم من الصعب أن تلهي امرأة عمَّا يدور في ذهنها، نعم سارة، كانت هناك فتاة في المغرب تعرّفت إليها في ظروف سيئة، كان كلّ منا هارب من واقعه كغريق يلتمس مَن ينقذه تشبث كلّ منا في قشّة الآخر، لم نعلم أنّ أوزاننا كانت أثقل من أن تنقذها قشّة في بحر الحياة.

شعرت بالغيرة كثيرًا لما قاله.

ومـن جديد خيّـم الصمـت! نفـس الصمت الذي شـعرت بـه أوّل مـرّة فـي القطـار، لا صـوت للبيانـو، لا صـوت الزبائـن، فقـط صوته يدوي فـي المـكان، فقـط أنا وهـو وكأنّنـا نسـبح فـوق سـحابة بعيدًا في السماء!

سـارة!! جاءنـي صوتـه وكأنَّـه صـدى مـن أعلـى جبـل.. أنـتِ بخير؟ سألني بدهشة.

نعم فقط سرحت قليلًا آسفة.

فيمَّ سرحتِ؟

حاولـت تغييـر الموضـوع فحدّثتـه عـن أمـر آخـر لأغيّـر مسـار الحوار إلى ضفة أخرى تمامًا.

هنـاك أمـر غريـب شـادي يحـدث معي لـم أُحـدّث بـه أحـدًا من قبل.

أشـعر دومـا بـأنّ هنـاك أحـدًا مـا يراقبنـي فـي شـقتي، إحسـاس غامـض ومُخيـف، أحيانًـا أسـمع صـوت الميـاه فـي الحمـام أثنـاء نومـي أو تراودنـي كوابيـس مزعجة، أنّـي عاجزة عـن الحركـة أو أنّي أهـرب مـن شـبح مـا، أصبـح الموضـوع مُزعجًـا مُؤخّـرًا.. طـوال الوقـت أشـعر أنّ هناك أحـدًا معـي لا أدري عنه شـيئًا، لكـن لا يوجد شيء مادي لتفسير الأمر!

ولمـاذا لـم تُحدّثـي به أحـدًا مـن قبل؟ سـألني شـادي وفـي عينيه الكثير من علامات الاستفهام.

لأنّي أخشى أن يروني قد فقدت عقلي، عزلتي كافية لتخبرهم بأنّي لست بخير! هل تؤمن شادي بوجود الأشباح؟ سألته.

ذبلت عيناه فجأة كأنَّه شخصٌ لم ينم منذ أيّام، وجهه أصبح شاحبًا كثيرًا ربَّما الطقس ازداد برودةً فجأة.

ما قصدك بالأشباح سارة؟ هنالك الكثير من العوالم ربَّما لا تدرين عنها، هنالك عوالم للشياطين والملائكة، عوالم للأموات والأحياء، وكلّها عوالم متداخلة بشكل مُعقّد، قد ننتقل من عالم إلى آخر دون أن ندري، أو قد ينتقل إلينا من عالم آخر ما لا نعرفه أو نراه!! أجبني شادي.

لقد أخفتني أكثر، أجبته بابتسامة مُفتعلة.

لا تخافي سارة، ليس بالضرورة ما لا نعرفه يخيفنا، أحيانًا ما نعرفه يخيفنا أكثر.

كانت عيناه تزداد ذبولًا.

تبدو مُتعبًا شادي، هل أنتَ بخير؟ سألته في قلق.

آسف ولكنّي متعبٌ قليلًا، لا بُدَّ وأن أرحل الآن.

ولكنّك لم تلمس طبقك! ألست جائعًا؟ سألته بدهشة.

لا يهم، فأنا كثيرًا ما أنسى آكل، أجابني بابتسامة غامضة.

مدّ يده ليودّعني فشعرت للحظة بدوار خفيّ وكأنَّه خدّرني بيده!

سأراكِ غدًا؟ سألني.

ربَّمـا، لا أدري! أجبتـه دون أن أنظر إلـى عينيه، فكـذب الكلمات تكشفه العيون دون جهد.

رحل مُسـرعًا وبداخلي مشـاعر كثيرة متداخلة، إحسـاس بالسـعادة يتخلّلـه الخـوف، إحسـاس بالرغبـة فـي رؤيتـه كثيـرًا وإحسـاس بالهـرب بعيـدًا عنـه.. ذاك الصـراع بيـن مـا نحتـاج إليـه ومـا اعتدنـا عليـه، وكأنَّك تُبـدّل جلـدك لتصبح إنسـانًا آخـر لا تعرف عنه شـيئًا.. تفتـح قلبـك لعالـم لا تستشـعر أمانه بعـد.. تحـرّر روحك فـي رحلة بحث عـن السـعادة فـي عالـم ممتلـئ بالمخاطـر وكأنَّك طفـلٌ يحبو أولى خطواته في حذر!

رجعـت إلـى غرفتـي تلـك الليلـة ورغـم شـدّة تعبـي لـم أسـتطع النـوم سـريعًا، حاولـت أن أغفـو، فـإذا بـي فـي مـكان غامض أشـبه بالسـيرك، خيمـة كبيـرة مُلوّنـة بالأحمـر والأصفـر، وكان هـو هنـاك يرتـدي زيَّ السـاحر، اقتـرب منّـي وحملنـي برفق فـوق دوائـر مُعلّقة في السـقف على ارتفـاع هائـل، لها شـكل يشـبه السـحاب ترتفع في الهـواء وتـدور دورة كاملة حـول المكان، وهـو يُقبلّني بقوّة ويمسـك يدي، كان هناك شـعاع من الضـوء يتحـرّك خلفنا فـي كلّ دوران، فإذا بـي أرى ظـلالًا علـى الجـدران، وكأنَّها ظـلالٌ لوجـوه أنـاس مُظلمة خارج الخيمة، وكأنَّها تشاهد في صمت!

وفجـأة شـعرت بسـقوطي، فاسـتيقظت فزعـة، وجـدت وسـادتي مُبلّلـة مـن شـدّة العـرق رغـم بـرودة الطقـس، وشـممت عطـره مـن جديد في غرفتي وكأنَّه هنا معي!

حاولت أن أنام مرّة أخرى ولكنّي لبثت في السرير حتّى أشرقت الشمس.

***

أكثر ما يجذب الأنثى في الرجل هو الغموض..

أن تكون شخصًا عاديًا وسط مليارات البشر لا شكّ بأنّه شيء ملل، أن تكون حياتك صفحة بيضاء يمكن لعابر سبيل أن يقرأها فلن يثير فضوله قراءتها، كم من الرجال على هذا الكوكب يحملون نفس الصفات.. نفس الاهتمامات، آخر موديل سيارة.. نتيجة المباراة؟ أو قد يختلفون في رؤيتهم للأنثى فبعضهم قد يحبّ شعرها قصيرًا أو طويلاً، نحيفة أو ممتلئة! نظرتهم للحياة قد لا تتعدّى أصابع أقدامهم.

قليلون من هم شادي.

شادي.. كان أشبه بـ أُحجية، لا تعرف أبدًا بدايتها، أو كيف تُرتّب لتحصل على صورة واضحة؟! تلك المتاهة التي يحاول الفأر أن يصل إلى الجبن فيسلك كلّ الطرق! كلّ شيء به يحمل علامة استفهام تستفز عقلك لتبحث عن إجابة ولا أدري لماذا أخذت على عاتقي فكّ شفرات اللغز.

لم يشك الفأر أنّ الجبن قد يكون في المصيدة!

كان في انتظاري اليوم التالي الساعة الثالثة عصرًا، تُرى كم من الوقت انتظر حتّى يراني أم أنّه يعرف موعد خروجي بالفعل؟

ابتسمت له واتجهنا سويًا نحو المطعم نفسه، لم تكن صدفة تلك المرّة، ولم يكن لقاءً مُتفقًا، فقط مضينا سويًا دون أن أسأل عن شيء.

كنت أخشى ألَّا أراكِ اليوم، قال شادي بصوت دافئ.

وماذا إن لم ترني! لم تعتد رؤيتي بعد، أجبته.

أودّ أن اعتاد رؤيتك، فهناك إحساس غريب بالسلام معكِ.

ولكنّ التعوّد يفقدنا الإحساس الأوّل، الأشياء التي نعتدها تصبح أمورًا مُسلّمة لا نراها مع الوقت.

هذا إن كان التعوّد هو الرابط الوحيد بيننا وبين الأشياء تلك، ولكنّ بعض التعوّد إدمان من نوع آخر!

هل تقصد أنّنا قد نعتاد أشياءَ لا نحبّها لمجرد فكرة التكرار؟ سألته.

بالطبع! فالمُعتقل يعتاد السجن حتّى أنّه لا يستطيع العودة لحياته الطبيعية، لا يعني هذا أنّه أحبّ حياة السجن بالفعل! كالحال في شقتك، لقد اعتدت عليها رغم ما يخيفك بها.

أنت مُحقٌّ، لكن مؤخرًا قد ازدادت الكوابيس كثيرًا أصبح الأمر مُزعجًا للغاية.

الكوابيس سارة ليس لها علاقة بالشقة، تلك الكوابيس تخرج من رأسك، هناك شيء تخشينه ليس موجودًا حولكِ ولكنّه بداخلكِ.. أجابني شادي.

لا أدري، لكـن أحيانًـا أرى تلـك الكوابيـس ملموسـة بشـكل مُخيـف وكأنَّهـا حقيقـةٌ، أنـا دومًا أفتقـد إحسـاس الأمـان، صعب أن تشـعر بالأمـان وقـد اعتـدت أن تواجـه العالـم وحـدك وقـد اعتدت ذلك منذ صغري.

أمسـك بيـدي وكانـت يـده بـاردةً للغايـة ولكـنّ عينيـه دافئـةٌ كعادتـه، همس لـي بصـوت رقيق، أنـا بجـوارك سـارة، أنا معـكِ في كلّ مكان.

ارتبكـت قليـلًا، كان رأسـي مملـوءًا بالأسـئلة وبالغيـرة، حاولت أن أطمأن نفسي فسألته؛ كيف انتهت قصتك مع تلك الفتاة؟

شـعرت باسـتيائه فهو لـم يتوقّـع سـؤالي في ذلـك التوقيـت على الأقل ولكنّه أجابني.

هربت سـارة، بعـد ما كنـت معهـا لأعـوام، لـم أسـتطع أن أعدها شـيئًا، لـم أثـق فـي حبّـي لهـا، هـل يمكنـكِ تجـاوز هـذا الأمـر.. أرجوكِ!

بالطبـع! أجبتـه بابتسـامة رغـم شـعوري بأنّـي أفسـدت لقاءنـا بغيرتـي الحمقـاء، ولكنّـه كان رقيقًـا للغاية، قبّل يـدي وقال لـي: مُنذ رأيتك وأنتِ كلّ عالمي!

منذ أن رأيتني في القطار؟ سألته بابتسامة.

بل من قبل ذلك بكثير، أجابني وكأنَّه يخبرني لغزًا ما!

منذ متى؟ سألته.

منذ لم يكن اللقاء اختيارًا.

لا أفهم شادي ماذا تقصد؟

لا أدري لماذا تهتم النساء دائمًا بالتواريخ.. تحتفظ بتاريخ أوّل كلمة أوّل قبلة.. نحن من نصنع الأرقام سارة.. إذا كنت أحببتك منذ ثانية أو منذ قرن فماذا يهمّ ما دمت أحبّك الآن؟

لأنّ علماء النفس يزعمون أنّ الحبّ يختفي بعد ثلاث سنوات.. فهل أنا ما زالت في مِنطقة الأمان؟ أجبته ساخرةً.

الحبّ المشروط لا يُعد حبًّا.. الحبّ المقيد بالأرقام والأماكن لن يعيش حتّى ثلاث سنوات.

لا أعرف كم مضى من الوقت؟ كان صوته وحده كافيًا بأن يفقدني الإحساس بالزمن والمكان، كانت عيناه تحملني لأقصى الأرض في رحلة أشبه بالحلم.

كنا نلتقي بعدها كلّ يوم في نفس المكان بعد خروجي من الجامعة، نتحدّث كثيرًا عن كلّ شيء وأيّ شيء، كنت أتساقط فيه سقوط حرّ مُسرعةً نحو قاعٍ لا أدري عنه شيئًا، أغمضت عيني وفتحت ذراعي لعالمه.. عالم شادي!

***

أحيانًا نهرب من أشياءَ نحبّها، أشياءَ نودّ الاحتفاظ بها، ولكنّنا لا نملك مكانًا لها بداخلنا، أحيانًا نهرب حتّى من أنفسنا، فالهرب لا يعني بالضرورة الرفض ربَّما يعني الضعف أو أنّك لست مُستعدًا بعد.. ولكنّ الهروب من المكان لا يكفي ما دمنا نحتفظ بذاكرتنا، لن ينجح هروب الجسد في النجاة!

ليلة شتاء باردة من ليالي الإسكندرية، حيث تغرق الأمطار الشوارع، وتغسل الأرصفة، وتمحو أثر الأقدام اللاهثة خلف اللقاء.

مساء يوم الأربعاء التقينا أنا وشادي في ملهى أحد الفنادق كان يرتدي الأسود كعادته، اقترب منّي وهمس بصوت رجولي دافئ.. كم أنتِ جميلة اليوم!

فقط اليوم! أجبته بضحكة ساخرة.

لا أنتِ دومًا جميلة ولكنّك اليوم تبدين كزهرة بيلسان!

ولماذا البيلسان؟ سألته بمكر أنثي تلتمس المزيد من الغزل.

رداؤك الأبيض.. شعرك الأسود المنسدل على كتفك.. براءة عينيكِ... كلّ شيء بكِ يُذكرني بنقاء البيلسان.

كانت تُعزف أغنية عالمسرح:

يوم التقينا،

تجمدت.. حبست أنفاسي..

من البداية

كنت أعرف أنني وجدت منزلاً لقلبي

كيف أحبّ وأنا أخشى السقوط

لكن حين أراك وحيدًا

كلّ شكوكي تتلاشى

حبيبي لا تخاف أنا أحببتك

لألف سنة

وسأحبك لألف أخرى!

مـدّ يـده ودعانـي لنرقـص، لأوّل مـرّة نقتـرب لهـذا الحـدّ، يديـه تحتضـن خصـري، احتضنتـه بذراعـي، شـعرت بنبضـات قلبـه مسرعة، شعرت بأنفاسه على شعري، بعطره، ببريق عينيه!

همس في أذني، أيّ جزء من العالم أنتِ؟

ضحكت قائلةً: نفس عالمك أيّها الدبلوماسي الغامض.

بل أنتِ عالم آخر، عالم لا يحتمل الشكّ.

لـم أفهـم كلماتـه، عانقتـه أقـرب لجسـدي شـعرت بـه يرتجـف قليلًا، وددت لو يلتحم جسـدي وسـط ضلوعـه حتّى لا يشـعر أحدنا

بالخـوف، شـعرت وكأنّ الأرض انكمشـت حتّـى صـارت ذلـك المسرح الذي نتلامس عليه لأوَّل مرّة!

صـوت الموسـيقى تتحـدّث بلغـة الحيـاة، تلـك اللغـة التـي لا تعرفهـا سـوى الفنـون التي تلمـس قلوبنـا حتّـى الأعمـاق، فنحلّق في فضـاء واسـع حتّـى وإن مـا زالـت أقدامنـا تلمـس الأرض، كنت أذوب كجليـد أشـرقت عليه الشـمس في نهـار صيف.. كنـت وكنت وكنت... حتّى وجدت بين ذراعي لا شيء!

فراغ.

لا أدري متى وكيف؟!

كلّ شـيء حولي تلاشـى فجأةً.. رأيت نفسـي وحدي عالمسـرح، نظرت حولـي كثيـرًا، بحثـت عنـه فـي كلّ مـكان.. اتّجهـت للطاولة التـي كنـا نجلـس عليهـا فلـم أجـد مفاتيحـه أو هاتفـه.. أمسـكت هاتفي بيدٍ مرتعشةٍ حاولت الاتّصال به، ولكنّ هاتفه مغلق!

جلسـت وحـدي فـي حالـة مـن الذهـول والخـوف لا أعـرف إن كنـت أحلـم أم أنّ شـيئًا أصـاب عقلـي! كيـف تحـوّل كلّ شـيء إلى لا شيء؟!

هـل تحبّـي طلـب شـيء سـيّدتي؟ جاءنـي صـوت النـادل مِـن خلفي ففزعت أكثر!

لا لا شيء شكرًا.. أجبته بصوتٍ مخنوقٍ.

مهـلاً انتظـر! هـل رأيـت السـيّد الـذي كان بصحبتـي منـذ قليل؟ سألته.

أعتذر سـيّدتي، فقـد اسـتلمت مناوبتـي من زميلـي منـذ قليل ولم أره.

غـادرت المـكان وقدمـاي لا تقـوى على السـير، وكأنني سـقطت من أعلى السماء إلى قاع الأرض.

***

ليـس النـوم أفضـل وصفـة للهـروب، أحيانًـا مـا يطاردنـا فـي أحلامنـا قـد يكـون أخطـر ممَّـا نهـرب منـه فـي الواقـع، بـل أحيانًـا يكون الحلم هو الواقع، لكن في صورة أوضح، وأقبح، وأعمق.

وكما نفقد السـيطرة علـى واقعنـا.. نفقدها فـي أحلامنـا! فمَن منا لـم يحلـم يومًـا أنّه سـقط مـن طابـق عـالٍ أو أنّـه يحـاول النجـاة من أمواج البحر الهائج أو أنّ شخصًا ما يطارده!

كلّها أحلام حاصرتنا في محاولة فاشلة للهروب إلى النوم.

عـدت إلـى غرفتـي تلـك الليلـة بعدمـا غـادرت الملهى فـي حالة صمـت أشـبه بالصدمة، لـم أكـن أدري إلى أيـن اتّجه! ظللـت أبحث عنه في وجوه المارة.

حاولـت الاتّصال بـه ربَّمـا ألف مـرّة، كنت فـي حالة مـن الهذيان وكأنّي في حالة سُكر!

خلـدت إلـى سـريري، تمنيـت لـو أبكـي، لكـن لـم أسـتطع.. حاولت النوم!

سـبحت فـي فضـاء بعيـد أشـبه بالسـماء وقـت عاصفـة ترابيّـة، كنت أقـاوم الريـاح وهي تحـاول أن تنتشـلني.. كانـت قدمـاي واقفةً علـى لا شـيء.. كنـت أرى الأرض أسـفل منّي علـى بُعد أميـال تبدو كحبة أرز!

ثُمَّ ظهـر أمامـي ببدلتـه السـوداء، لكـن دون وجه! سـمعت صوته صاخبًـا.. كـم أنـتِ جميلـة اليـوم سـارة.. ظلّـت كلماتـه تتـردّد دون توقّف.

حاولـت أن أركـض.. حاولـت أن أصـرخ، ولكنّي كنت فـي حالة شلل تمامًا!

شـعرت بخـوف شـديد.. أغمضـت عينـي ووضعـت يـدي علـى أذني.. حاولت الهروب بحواسـي فشـعرت بـه يحـاول أن يرفع يدي من على أذني بعنف.

سـمعت صوته مـن جديـد يصـرخ؛ لا تخافـي سـارة.. فقـط ابقِي معي!

انتفض جسـدي فوق السـرير، أشـعلت ضـوء المصبـاح بجواري وظللـت أنظـر فـي الغرفـة.. شـممت عطـره فـي وسـادتي، شـعرت بوجوده، لكن لا يوجد شيء!

شعرت بألم يدي!

حاولت أن أبكي من جديد، لكن تلك المرّة بكيت كما لم أبكِ من قبل.

***

السمع والبصر من أعظم النعم الإلهيّة! لكن كم مرَّة تمنينا ألَّا نسمع ما سمعنا أو ألَّا نرى ما رأينا؟ كم تمنينا أن نملك قدرة التحكم في حواسنا؟! كم مرّة تمنينا أن نرى بيوتًا مستقرةً وأشجارًا وقت ما رأينا الهدم والتخريب؟! كم مرّة تمنينا أن نسمع لحنًا على الكمان عندما سمعنا أصواتَ الشِّجَارِ والتعنيف؟!

كم تمنيت جدّتي أن أملك حواسي بدلًا من أن تملكني!

آسفة جدّتي، لكن أحيانًا أغبطك أنّكِ لا تسمعين ضجيجَ هذا العالم.

مرّ أكثر من أسبوعين ولم أزر جدّتي، كنت أطمئن عليها عن طريق اتّصالي بجارتنا (الخالة سعاد) فهي مَن ترعاها في غيابي.

غادرت في القطار المتجه إلى القاهرة صباح الخميس، كنت في حالة غريبة من الحزن، كنت أرى شادي في كلّ شيء حولي وكان بداخلي الكثير من علامات الاستفهام!

كم أفتقده الآن؟

شعرت بالطريق أطول من أيّ وقت وكأنّي مُسافرةٌ للأبد، أتذكّر نظرية أينشتاين: «المدة الزمنيّة تختلف من شخص إلى آخر، حيث إنّ الساعة التي يقضيها المترجل على الطريق تكون أبطأ من نظيرتها التي يقضيها سائق السيارة على الطريق، وهذه الساعة بدورها أبطأ بكثير من الساعة التي يقضيها سائق الطائرة في الجوّ».

هل حقًّا الزمن يتغير وَفْقًا للسرعة؟ أم وَفْقًا لشعورنا بالألم.. ربَّما المترجل شعر أطول بالساعة لأنه أُجهد أكثر من راكب الطائرة!

فها هي الساعة التي أتألّم بها الآن تبدو وكأنَّها دهر، والساعة التي سافر بها شادي بجواري مرّت كلمح البصر!

وصلت أخيرًا بيت جدّتي، احتضنتها بقوّة وددت لو أخبرها بكلّ شيء، لكن خشيت قلقها عليّ أو ربَّما لأنها لن تفهم ما يؤلمني فأنا نفسي لا أدري!

أدور في دوامة من المشاعر تصيبني بالدوار وفقدان الاتزان!

جلسنا سويًا لتناول الغداء نظرت كثيرًا إليّ في شك وقلقٍ ثُمَّ أشارت إليّ إن كنت بخير؟

نعم جدّتي، فقط مُتعبة قليلاً من الدراسة، أجبتها بالإشارة وفكّرت للحظة.. أجسادنا تستطيع الكذب أيضًا!

بعد الغداء زارتنا الخالة سعاد، فرحت عند رؤيتي، كانت تهتم لأمري كثيرًا منذ صغري، كنت أشعر دومًا بالعطف في عينيها، كانت هي الوحيدة التي تبعث الحياة في منزلنا بزيارتها لنا، وكنت أحمد الله على وجودها بجوار جدّتي، وأنا في الجامعة.

تبدين شاحبةً صغيرتي، لا بُدَّ أنّ الدراسة مُجهدة؟ سألتني الخالة سعاد وهي تتحسس وجهي.

لا تقلقي خالة قريبًا سوف أحصل على إجازة قصيرة في نهاية الفصل الدراسي، أجبتها وقلت في نفسي، كم أحتاج إجازة حقًّا من كلّ شيء؟

اعتذرت لها بأنّي مُتعبة من السفر وأحتاج أن أنام، ذهبت إلى غرفتي، ها هي شجرة الأحلام، أشعلت الضوء حولها وظللت أنظر إليها.. لا أدري إن كانت خذلتني أم أنّي مَن خذلتها؟!

أمسكت القلمَ وحاولت الكتابة:

رحلت سريعًا

كسحابة صيف

كغفوة عين

كوميض برق

حتّى سألت نفسي أحيانًا
أكنت حقًّا هنا؟
أم أنّي صنعتك من وحي خيالي؟
رحلت سريعًا
فلا شعرت ببرودة أناملك فالشتاء
ولا أمطرت علينا فالطريق السماء
ولا تلحفنا بالشوق في ليلة برد
رحلت سريعًا
فلا رأيت البحر معك في ليلة صيف
ولا راقصتني على أغنيتي المفضلة
ولا عرفت أيّ الألوان تحبّ
ولا أهديتك باقة زهور ورسالة حبّ
رحلت سريعًا
فلم احتفل معك بعامٍ جديدٍ
ولم نكتب أحلامنا في ظهر الغيب
ولم ننتظر سويًّا منتصف الليل
رحلت سريعًا
فلم أغضب منك

ولم تصالحني بكلمةٍ طيبةٍ
ولم تطفئ معي شمعة عيد ميلادي
ولم تهديني عطر الياسمين وتطوق ذراعي
رحلت سريعًا
ولم أعرف إن كنت ما زلت تحبّها
وكيف تمنيت زفافك بها
وأي الأسماء لأولادك اخترت
رحلت سريعًا
فلم أخبرك بعد عن سرّ هذياني بك
وكيف القتني الحياة على شطآنك
وكيف تمنيت الغرق فيك دون خوف
رحلت سريعًا
فلم ترَ بي الجانب المجنون والجانب المهزوم
ولم تدرك الحرب بعد في أعماقي
رحلت سريعًا
فلم أقبلك قبلة الوداع
ولم أعانقك
ولم أرجوك البقاء

رحلت سريعًا
وانتهى الحلم بك
ولم تدرك كم اشتقت إليك؟
وأني لم أستيقظ بعد.

***

الوحدة هي ذاك الفراغ الذي لا يملأه سوى شخص واحد.

لطالما اعتقدت أنّي وحيدة دون أهل أو أصدقاء، ولكنّ الوحدة التي شعرت بها بعد اختفاء شادي كانت مختلفة! أن تشعر بالوحدة.

لأنّ لا أحد يُبادلك نفس الأفكار شيء، وأن تفقد أحدًا ملأ كلّ الفراغات بداخلك شيء آخر! فأنت لا تدرك كم الفراغ بداخلك سوى بعد امتلائه؟!

قضيت مع جدّتي عُطلة نهاية الأسبوع، وكنت أرى في عينيها كم هي فرحة بأنّي معها، وكم هي قلقة من صمتي! كنت أرى الكثير من الأسئلة التي لا تقوى على سؤالها.

ودّعتها صباح السبت، قبّلت جبينها ويديها كنت أشعر بحاجة شديدة لها، عانقتها كأنّي آخر مرّة أراها، مما زاد من قلقها بأني لست بخير.

اتّجهت إلى محطة القطار.. زحام وصخب، أناس مُودعة وأناس تنتظر وبائع الجرائد ينادي، وددت لو سألته إن كان لا يزال

أحد يشتري الجريدة في زمن أصبح الهاتف هو بوابتك الوحيدة للعالم!

في محطة القطار كلّ يبكي على ليلاه!

وأنا أبكيك في صمت.. شعرت فجأة بطنينٍ شديدٍ في أذني.. سمعت صوتك وسط الزحام.. كان لبائع الجرائد صوتك.. لصوت القطار غضبك، مئات البدلات السوداء هنا وهناك!

كيف لك أن تُحاصرني في محطة القطار؟ أمن العدل أن أراك حتّى في الأماكن التي لم نلتقِ بها يومًا؟

التحقت بالقطار وحاولت مُجدّدًا الاتّصال بكِ، ولكنّ تلك الحمقاء أجبتني بأنّ هاتفك مغلقٌ! كم كرهت صوتها وكأنَّها عشيقتك؟

وضعت سماعات الأذن وحاولت أن أستمع إلى الراديو.. كانت فيروز تغني (أنا وشادي غنينا سوا، لعبنا على التلج ركبنا بالهوا) حقًّا!

ما بين كلّ أغاني العالم وثمانمائة أغنية لفيروز تغني (أنا وشادي)!

بدأت أؤمن بقانون الجذب فكلّ ما حولي يدور حول نفس الشيء، لا بُدَّ من أنّي أرسلت كلّ طاقتي للعالم فكان الردّ أقوى، كان شادي في كلّ شيء!

وصلت الإسكندرية واتّجهت نحو الجامعة، ولا أعرف كيف انتهى اليوم الدراسي كان عقلي مُشتتًا أكثر من أيّ وقت.. اتّجهت نحو البوابة فإذا به هناك! نفس البدلة السوداء، نفس هيئته الواثقة رغم هالة الضباب التي كانت تحيط به، ربَّما كان ينتظرني كما كان ينتظرني من قبل.. في البداية اعتقدت بأنّ خيالي خدعني للمرّة الألف، لكن تلك المرّة كان هو.. شادي.

***

الظلّ هو ذلك الظلام الذي يعجز الضوء أن يصل إليه؛ لأنّ أجسادنا لا تسمح بمروره.. لكن ماذا عن خيالنا؟ هل يعجز الضوء أن يعبر من خلاله فنرى أحلامنا مُجسّمة على شكل ظلال تحاصرنا في واقعنا؟!

هل الملائكةُ والشياطين تسمح بعبور الضوء من خلالها لذلك لا نراها!! وهل بالضرورة لكلّ ظلّ أصل؟ أم أنّ هناك ظلالًا تخلق من لا شيء؟!

اقتربت منه وبداخلي الكثير من الأسئلة.. الغضب والاشتياق!

وددت لحظة لو عانقته وبكيت ولكنّي لم أفعل.

أهلًا سارة.. قلقت بشأنك هل أنتِ بخير؟ سألني شادي بصوت قلقٍ.

بخير!! كيف لكَ أن تتركني فجأةً في الملهى تلك الليلة؟! سألته بغضب حاولت بصعوبة إخفاءه.

أيّ ملهى سارة؟ أنا لم أركِ منذ الثلاثاء الماضي عندما غادرتِ المطعم وأنتِ مُتعبة وحاولت أكثر من مرّة الاتّصال بكِ ولكنّ هاتفك كان مُغلقًا دائمًا.. أجابني شادي بدهشة.

تسمرت للحظة ولم أقوَ عالنطق شعرت بدوّار فجأةً ثُمَّ تمالكت نفسي وسألته محاولة أن أجد أيّ إجابة منطقية: لماذا أذن هاتفك مغلق؟!

سارة! أنا لم أغلق هاتفي أبدًا.. كنت انتظر اتّصالك أيّ وقت!

أمسكت بهاتفي وحاولت الاتّصال به فإذا بهاتفه يرن في جيب سترته!

أرأيتِ؟ قالها شادي بنفاد صبر.

صدقني.. أنا لا أفهم شيئًا مما يحدث!

لا عليكِ سارة، تبدين مُتعبةً للغاية، هل تودين الذهاب إلى طبيب؟ سألني بقلق.

لا تقلق سأكون بخير.. أجبته غير مُتأكّدة.

أفتقدك كثيرًا سارة، ما رأيك أن نتنزّه على البحر قليلاً ربَّما تشعرين بتحسّن؟ سألني بابتسامة لا يمكن رفض سؤاله بعدها أيّ كان!

بالطبع! فقد افتقدّتك أيضًا كثيرًا أجبته وأنا أشعر بنبضات قلبي تتسارع وكأنَّها تركض لتسبقني.

كانـت الشـمس علـى وشـك أن تغفـو فـي الأفـق، جلسـنا علـى صخـرة على الشـاطئ، الأمـواج تصطـدم بهـا وكأنَّهـا الحيـاة تحاول أن تلحـق بنـا، كان فـي كلّ اصطـدام للمـوج أشـعر بالمـاء يلمـس وجهـي وشـعري، نظـرت فـي عينيـه وسـألت نفسـي كيـف كلّ هـذا الهدوء في عينيه أن يُحدث هذا الضجيج في قلبي؟

أمسك يدي بقوّة وهمس في أذني: سارة.. ابقي معي.

تذكّـرت تلـك الليلة.. نفـس الكلمـات، ولكـنّ صوته تلـك المرّة كان أدفئ وأعذب.

أنـا معـك شـادي وسـأبقى معـك دومًـا، أجبتـه لأطمئنـه وأطمئن معه.

اقتـرب منّـي وقبّلنـي.. شـعرت وكأنّ الزمـن توقّـف وتوقّفـت الأرض عـن الـدوران، وكأنّ بقبّلتـه خلـق لـي أجنحـةً تقـوى علـى الطيران!

نظرت إليه كثيرًا ثُمَّ همست في أذنه: شادي.. أحبّك.

ابتسم لي ثُمَّ طوقني بذراعيه: أحبّك سارة.

كنـت بالرغم من سـعادتي شـاردةً، لـم أنسَ تلـك الليلة، خشـيت سؤاله حتّى لا يشك أنّ هناك خطبًا ما في عقلي.

سارة! فيمَّ سرحتي؟ سألني.

سكتُ قليلاً قبل أن أجيبه: هل يمكن أن تخدعنا عُقولنا؟ أن تغير من إدراكنا لما يحيط بنا لمنحنا سعادةٍ مؤقتةٍ؟

نحن لا نرى الأشياء من العدم حتّى وإن خدعتنا عقولنا أحيانًا، فلا بُدَّ من أنّ هناك بابًا ما قد فُتح لنا في الخفاء، هو ما أثار تلك الزوبعة! لكن لماذا تسألين؟

لا أدري، ولكنّ أطباء النفس يقولون إنّه ليس هناك مرض اسمه الجنون فلماذا إذن تفقد الناس عقولَها؟

الناس لا تفقد عقولها سارة، الناس ترفضها! حين لا تمنحهم السلام الكافي للعيش، تصبح الحياة ساحة معركة، الاختيار وقتها يكون بين الحياة والعقل، فإما أن تعيش معذبًا أو أن تضحي بعقلِك.. هل تشكين في حبّي لكِ؟

شعرت في سؤاله بحزنٍ خفيٍّ.

لا شادي الأمر ليس كذلك، أنا فقط مُشتّتة كثيرًا.

أيّ كان يا سارة ما يراه عقلك فقد نبت من جذور الحقيقة.. اتّبعي حدسك وتأكدي من حبّي لك!

ذهبت لغُرفتي ذلك المساء كفراشة تُحلّق في الفضاء، لأوّل مرّة أشعر أن للحياة مذاقًا شهيًّا، والحبّ ما يفتح شهيتنا على الحياة يجعلنا دومًا جوعى للمزيد.. ننتظر وقت اللقاء بلهفة شرهةٍ ونُمقت الوداع حتّى إن كان وقت النوم. نظرت في المرآة كثيرًا

وتساءلت كيف تراه يراني؟ هل يراني أميرته كما في روايات الخيال، أتراه يمتلك جوادًا أبيض ليحملني معه إلى قصر بعيد فوق التلال؟! أتراه بحث عن حذائي المفقود وسط نساء العالم؟!

احتضنت وسادتي ونمت كطفل ليلة عيد.

استيقظت الساعة الثالثة صباحًا على صوت غريب صوت أشبه بـ ذئب يعوي خارج نافذتي! تجمدت مكاني وشعرت بخوف شديدٍ حاولت أن أميّز الصوت ولكنّه كان يبتعد وكأنَّه صدى من بعيدٍ.

أشعلت المصباح بجواري فرأيت ما هو أشبه بالظلال على جدران غرفتي، ظلال على شكل أمواج تتحرّك نحويِ، ارتعشت كثيرًا.. أطفأت المصباح وأخفيت رأسي تحت الغطاء، ظللت أردّد بعض الأذكار حتّى طلع النهار.

***

يتغيّر شكل الأشكال من حولنا بتغّير رؤيتنا لها.

فقد تمرُ كلّ يوم على نفس الطريق ولا تلاحظ بائع الورد، وقد تمر يومًا ما فلا ترى سواه! تتغيّر شكل الأماكن حسب رؤيتنا لها، فقد ترى البحر يومًا صديقًا تخبره أسرارك، وقد تراه يومًا وسيلةَ هروبٍ، وقد تراه يومًا مكانًا مُخيفًا يبتلع أحلامك! بعض الأماكن عندما تشاركها مع مَن تُحبّ لا ترى أبدًا قُبحها.

(الجمال في عين الرائي) حكمة قديمة!

اتّجهت إلى الجامعة في اليوم التالي، كنت مُتعبةً للغاية؛ لأني لم أستطع النوم تلك الليلة.. أثناء المحاضرة استقبلت رسالةً من شادي وكأنَّه يشعر بي!

يقال إنّ الكهوف تنتزع منا التعب والطاقة السلبيّة.. ونهاها بوجه مبتسم!

أيّ كهوف؟ أرسلت له لأسأله.

انتظريني الساعة الرابعة عند بوابة الجامعة وسأخبرك.

لم يكن لدي طاقةٌ للتفكير في حلّ ذلك اللغز، دماغي مشوشة بالفعل أرسلت له أنّي موافقة.

عند الساعة الرابعة كان ينتظرني بلهفة عند البوابة.

أخبرني بقصة الكهوف؟! سألته بمجرد رؤيته.

لم أعرف أنّكِ فضوليّة إلى هذا الحدّ.. أجابني وهو يضحك.

هيَّا نذهب من هنا يوجد مكان رائع أودّ أن نراه سويًا.. أكمل حديثه.

رأيت الإسكندرية كما لم أرها من قبل! لا أدري كم مرّ من الوقت في السيارة ربَّما ساعة ونصف أو أكثر حتّى شككت بأننا غادرنا الإسكندرية.

ها قد وصلنا! قال شادي عندما وصلنا إلى مكان غريب أشبه بشاطئ ولكنّه مختلفٌ تمامًا عن شاطئ الإسكندرية! كان هناك مكان أشبه بالمغارة وكانت الشمس على وشك الغروب.

هنا! ما هذا المكان؟ سألته.

خائفة؟ سألني شادي.

كيف لي أن أخاف معك؟ أجبته.

أمسك يدي ودخلنا معًا إلى ما يشبه الكهف، كان ظلامًا دامسًا فأشعلت هاتفي كي أرى أيّ شيء، كانت الجدران أشبه بلوحة مرسومة من الصخور، تميل لونها إلى الأبيض، سمعت فجأةً صوت أشبه بالخفافيش فأمسكت في ذراع شادي في خوف، لمس شعري بحنان وطمأنني.

سألته: هل كنتَ هنا من قبل؟

ربَّما!

بعد الكثير من المشي داخل الكهف بدأت أشعر برطوبة الهواء حتّى وصلنا إلى تجمّع مياه أشبه ببركة صغيرة.

ما رأيك؟ سألني شادي بحماس.

فيمَّ تُفكّر؟ سألته بحذر وأنا أعرف فيما يُفكّر بالفعل.

المياه هنا دافئة، هيَّا لا تكوني جبانة، بعض الجنون يعطي للحياة نكهةً مختلفةً، ثُمَّ ابتسم ابتسامته الساحرة.

أشعلنا هواتفنا وتركناها على الأرض لتمنحنا بعض الضوء.. ودون تفكير خلعنا ملابسنا ونزلنا إلى بركة المياه، كان الماء دافئًا فعلًا.

اقترب منّي وعانقني، أحسست بجسده وكأنَّه يلتحم مع جسدي كسمفونيّة آلات موسيقيّة تعزف في تجانس تام! قبّلته ربَّما ألف مرّة، شعرت بملوحة الماء على شفايفه، يده على جسدي وكأنَّها تمحو أثر كلّ ما مضى من عمري وكأنّي أُخلق من جديد!

أحبّك كثيرًا أخبرته وهو يُقبّلني في عنقي.

أحبّك سارة أخبرني بكلماته.. بجسده.. بقبلاته.. بروحه..كلّ شيء به قالها لي بطريقة مختلفة.

همست في أذنه؛ شادي! هل أنا أحلم؟

أنتِ سعيدة؟ سألني.

كما لم أسعد من قبل، أجبته وأنا أتحسّس وجهه.

إذن، دعينا نحلم!!

ولكنّي خائفة من أن أستيقظ، قلت له وأنا أحتضنه بقوّة كنت أخشى أن يختفي مِن جديدٍ.

لا تدعي الخوف يتسرّب إلى قلبك، الخوف يحجب كلّ المشاعر الأخرى من التحرّر، تمددي وأنا سأضع يدي تحت

ظهـرك، تأكّدي بأنّـك لن تسـقطي أبدًا مـا دمت أنـا بجـوارك، أغلقي عينيكِ وعقلكِ، دعي قلبك اليوم هو المسيطر.

تركـت جسـدي يطفـو فـوق الميـاه وأغرقـت خوفـي وعقلـي، شـعرت للحظـة بأنّي إحـدى جنيات البحـر الهاربـات، وأنه قـادم من أقصى الأرض لإنقاذي!

بعـد أن انتهينا اسـتلقينا علـى الأرض في صمـت وكأنّنا كنّا نسـبح في بركة من الخمر!!

نمت نومًـا عميقًـا ربَّمـا كأهل الكهـف، اسـتيقظت السـاعة الثالثة صباحًـا على رنّـة هاتفـي وجـدت نفسـي فـي سـريري عاريـة تمامًا، وقبـل أن أُفكّـر فـي شـيء أمسـكت الهاتـف وأجبـت فـي حالـة من الهلع:

أهلا خالة سعاد كيف حالك؟ جدّتي بخير؟

جدّتك مرضـت ونقلتهـا المشـفى، أرجـو أن تحضري في أسـرع وقت، ردّت الخالة سعاد بصوت مخنوق.

أغلقت الهاتف وأنا في حالة صدمة.. خوف وشلل تام!

***

تعدّدت أشكالُ الرحيل والفراقُ واحدٌ

البعض يرحل دون كلمة وداع.. دون اعتذار.. دون عناق..

والـكلّ يرحـل فـي مرحلـة مـا، شـئنا أم أبينـا لـكلّ حكايـة لحظة فراق

والمـوت وجه مـن أوجـه الرحيـل ولكنّـه أقسـاهم فهو يهـدم كلّ أمل في اللقاء

هـو آخـر كلمـة فـي الكتـاب! لا كلمـة بعـده يمكـن أن تُقـرأ ولو كتبنا آلاف الكلمات..

اتّجهت إلـى القاهرة فـي قطـار السادسـة صباحًا، وجـدت الخالة سـعاد تنتظرني فـي المحطة مـع ابنها كريـم، لا بُدَّ مـن أنّـه كان إجازة في القاهرة ذلك الوقت.

خالـة سـعاد أرملـة فـي أواخـر السـتين، لديهـا ابـن وابنـة، ابنهـا كريـم يعمـل مهندسًـا فـي إحـدى دول الخليـج، سـافر منـذ ثـلاث سـنوات تقريبًـا، وابنتها شـيرين تعيـش مع زوجهـا في إحـدى الدول الأوروبيّـة منذ خمـس سـنوات.. تركاها وحيـدةً لتتواصـل معهم عبر مئات التطبيقات التكنولوجيّة، التي لم تكن تعرف عنها شيئًا!

كانـت جدّتـي صديقتهـا الوحيـدة، بالرغم مـن أنّها لم تكـن تُجيد لغـة الإشـارة، ولكنّهـا لـم تكـن تحتـاج إلـى أحـد يسـمع بقـدر احتياجها أن تتكلّم.

عانقتني بقوّة مجرد ما رأتني مما زاد قلقي!

جدتي بخير؟ سألتها وأنا أخشى الإجابة.

تماسكي صغيرتي! جدّتك تُوفيت فجر اليوم.. أجابتني بصوت مخنوق.

للحظة سألت نفسي ما معنى تماسكي! أن لا أصرخ.. لا أبكي.. لا أسقط.

ألا نملك حتّى حقّ البكاء في أصعب لحظات الحياة؟

هل تمّت مراسم الدفن؟ سألتها وأنا أحاول التماسك كما سألتني.

لا صغيرتي، ما زالت في المشفى لا تقلقي كريم هنا، وسيتولّى أمر الإجراءات كلّها.

البقاء لله سارة.. قالها كريم وهو يحاول إظهار التعاطف، فهو لم تكن تربطه أيّ صلة بجدّتي منذ فترة بعيدة.

كان كريم الشاب المثالي لأيّ بنت، كان وسيمًا وبه براءة طفل لم يبلغ بعد، أعتقد أنّه لم يكن له أيّ علاقات في حياته، حتّى عندما كان يزورنا مع والدته عندما كنا أطفالًا كان يخجل أن ينظر في عيني، كريم صفحة بيضاء مفتوحة للجميع أتعجّب كيف لم تلطخ الحياة بسواد حبرها في صفحته شيئًا؟!

ركبت معهما السيارة واتّجهنا للمشفى، نفس المشفى الذي تُوفي به والداي بعد الحادث! بعض المشافي تبدو للبعض كمقبرة جماعيّة!

هل يمكنني رؤيتها؟ سألت الطبيب.

بالطبع أجابني وهو يحاول التعاطف أيضًا.

وددت لو أخبرهم أنّهم ليسوا بحاجة لذلك، فالأمر لا يعنيهم في شيء وافتعالهم يُصيبني بالتوتر أكثر!

دخلت غرفة جدّتي، كانت راقدة في سلامٍ وعلى وجهها ابتسامة لم أرها من قبل.. أتُرى هل تشعر بوجودي الآن؟

آسفة خالة سعاد لم أقوَ على التماسك.

بكيت على صدرها كثيرًا، قبّلتها في جبينها، طلبتُ منها أن تسامحني وأخبرتها كم أنّي أحبّها ولكنّ بعض الكلمات تتأخّر كثيرًا فتبدو مجرد عبثٍ.

لم يكن هناك أحد من أقاربي، كانت وحيدة في موتها كما كانت في حياتها.. وشعرت للحظة بأنّ نهايتي لن تكون بعيدة عنها، ربَّما لن تكون موجودة الخالة سعاد وقتها حتّى، تذكّرت شادي فأرسلت له رسالة قصيرة: أحتاج إليكَ.. جدّتي رحلت.

أنهى كريم إجراءات المشفى واتّجهنا لدفنها قبل المغرب تقريبًا!

ظلّت الخالة سعاد تحتضني طوال الطريق محاولة منها لمواساتي.

عنـد الدفن وقفـت مُتسـمرّة لبعـض الوقت وفـراغ تامٍ فـي عقلي، كنتُ في حالة من الإنكار والرفض.

صرختُ فجـأةً.. تسـاقطتُ علـى الأرض.. بكيت وناديـت بأعلى صوت؛ لا توقّفوا... لا هذه ليست جدّتي!! هذا شادي توقّفوا.

رأيتُ شادي جثّة في حفرة جدّتي.

ظلام دامـس.. اسـتيقظت فـي غرفتـي في بيـت جدّتي.. سـمعت صوت رجل والخالة سعاد يتحدّثان في الخارج.

لا تقلقـي سـتكون بخيـر لـم يكـن مـن المفـروض أن تحضـر الدفـن، فهـي تبدو حسّاسـة ولـم تحتمـل الصدمـة.. سـمعت صوت الرجل لا بُدَّ من أنّه الطبيب.

زارتني فـي غرفتي، مسـحت على شـعري بيدهـا وسـألتني.. أنتِ بخير صغيرتي؟ مَن شادي هذا؟

لـم أقـوَ علـى النطـق، بكيـتُ فـي حضنهـا كثيـرًا وكأنّـي طفلـةٌ صغيرةٌ يلاحقها شبحٌ في أحلامها.

سـتكونين بخير، أنتِ فتـاة قويّة.. سـأكون بجـوارك أنـا وكريم إن احتجتِ شيئًا.

أخرجـت مـن جيبهـا ورقـة وتركتها علـى وسـادتي.. هذه رسـالة جدّتك إليكِ قبـل الرحيـل، اقرئيهـا عندما تكونيـن مُسـتعدّة.. قبلتني وغادرت.

ابنتي سارة.. عشتُ معكِ سنينًا طوالًا بعد وفاة والديك، كنتِ كلّ شيء في حياتي، رأيتكِ طفلةً وحيدةً، ورأيتكِ شابةً منطويةً، والآن أراكِ امرأة ناضجةً جميلةً، ولكنّك ما زالتِ تحملين الحزن في قلبك.. أعلم أنّ الحياة قد سلبت منكِ الكثير، ولكنّ العمر أمامك.. احبّي.. تزوّجي.. وأنجبي الكثير من الأولاد.. أطلقي رصاصة الحبّ على الوحدة.. ستكونين زوجةً رائعةً وأمًّا رائعةً.. أحبّك.

طويت الرسالة وفي قلبي الكثير من الألم، تُرى ماذا شعرت جدّتي حتّى كتبت لي تلك الرسالة؟ أكانت تشعر بأنّها سترحل؟ أكانت ترى الملائكة تطوف حولها تُرحّب بها في عالم آخر؟ تُرى ما سرّ اهتمامها بزواجي؟ هل عرفت أمر شادي؟

كانت الساعة الثانية بعد منتصف الليل، حاولت أن أكتب إليها لأردّ على رسالتها، ولكنّي لم أجد وسيلة لتصل كلماتي، فالورق والأقلام فقط لقاطني الحياة، لمَن لديهم الوقت والفرص ليكتبوا، لكن للأسف كما أنّ قاطني العالم الآخر لا يقرأون كتابتنا هكذا الحال في الحياة، البعض يكتب لمَن لا يقرأ.

شعرت بحركة غريبة في الغرفة، بيدٍ على كتفي.. بعطر أعرفه جيّدًا.

شادي!! أنت هُنا؟ كيف دخلت وهل الخالة سعاد رأتك؟ قلت له وأنا أعانقه.

لا تقلقي! لـم يرنـي أحد أنـا هنا لأنـكِ بحاجة إلـيَّ، ضمنـي بقوّة وقبَّل رأسـي، بكيـت على صـدره وشـعرت لأوّل مـرّة بالأمـان الذي حُرمت منه عمرًا كاملًا!

شـادي.. أخـاف أن أفقـدك لقـد تخيلتـك مـكان جدّتـي، أصبـح خيالـي يخدعنـي كثيـرًا لـم أعـد أعـرف الفـرق بيـن مـا أتخيّلـه ومـا أراه، لا أعـرف مـا رأيتـه فـي الملهـى والكهـف وفـي المقبـرة وحتّى الآن إن كان حقيقيًّا أم لا؟

أنا متعبةٌ شادي.

شـعرت بيـده علـى شـعري، أمسـكني مـن ذراعـي وكأنَّـه يحاول ألَّا يدعنـي أسـقط.. اسـتريحي حبيبتـي لا تفكّـري فـي شـيء أنـا هنا بجوارك.

قالها شادي وهو يحاول أن يُساعدني لأستلقي على السرير.

أغمضت عيني وشـعرت بـه جواري يمسـك يـدي بقوّة، شـعرت للحظـة وكأنَّـه يبكي حاولـت أن أفتـح عينـي، ولكنّي كنـت أغرق في سُبات عميق، وعند ما استيقظت كان قد رحل.

***

كلّ أنثـى تحلـم برجـل مثالـي، تشـاركه أحلامهـا وأفكارهـا وسـريرها.. تحلم برجل طويـل.. وسـيم.. ناجح.. غنـيّ.. عطوف.. لا يخـون.. لا يكـذب! باختصـار تحلـم بإنسـان آلـي! إن وجدتيـه عزيزتي فاعلمي أنّه لا يصلح للحبّ.

فالرجل المثالي يصلح لكلّ شيء إلا الحبّ! طرقت الباب الخالة سعاد لتدعوني إلى الإفطار معهم، كان كريم لا يزال في بيت جدّتي.

صباح الخير سارة كيف حالكِ اليوم؟ سألني كريم دون أن ينظر إليَّ.

بخير كريم.. شكرًا على سؤالك.

أثناء الإفطار كان هناك صمت بيننا نحن الثلاثة.

نظرت إلى الخالة سعاد كانت عيونها مُنتفخة كثيرًا لا بُدَّ من أنّها بكت أيضًا أمس.

مَن يدعوك للتماسك هو أكثر شخصٍ بحاجة إليه!

إلى متى ستمكث في القاهرة كريم؟ سألته محاولةً لكسر الصمت، لم أرد أن يشعرا بأنّي مستاءة من وجودهما معي في المنزل.

ربَّما أسبوعان أو أكثر، لست أدري بعد، أجابني وهو يرتشف القهوة، محاولة أخرى للهروب من أن ينظر إليّ.

كريم سيبقى معنًا قليلاً حتّى يطمئن أنّ كلّ شيء بخير.. قالتها الخالة سعاد.

ما معنى أنّ كلّ شيء بخير؟! أسيمكث معنا حتّى تعود جدّتي؟ سألتها مُتهّكمة.

إذا كان وجـودي غيـر مرغـوب فيه يُمكـن أن أرحـل سـارة، قالها كريم وساد التوتر للحظات بيننا.

آسفة كريم، لم أقصد، أنا مُتعبة قليلًا سأعود إلى غرفتي.

تركـت الطاولـة وعـدت إلـى سـريري وأنـا أفكّـر لمـاذا كنـت حمقاء هكذا، ربَّما محاولته إظهار اللطف الزائف استفزتني!

جاءت الخالة سعاد بعد قليل لتطمئن عليَّ:

أعـرف أن جدّتـك كانـت أغلى مـا فـي حياتـك صغيرتـي، ولكنّ وجودنـا هنـا محاولـةً لمسـاعدتك، لا شـيء سـيعوض وجودهـا، ولكنّ كريم فعلًا مهتمٌ بكِ فهو يعزّك منذ كنتم أطفالًا.

لا أدري ماذا تحاول الخالة سعاد أن ترمي إليه؟!

لا بـأس خالـة أنـا بخيـر، ولكنّـي سـأعود للجامعـة فـي الأيّـام المقبلة، لديّ الكثير هناك، أجبتها لاختصار الوضع.

سـارة، لا بُـدَّ أن ترتاحي قليـلًا فأعصابـك مُتعبـةٌ، ما رأيـك بنزهةٍ في النيل بعد المغرب، لا تبقي محبوسة هكذا في غرفتكِ.

لا بأس! أجبتها لأنهي الحديث وتتركني وحدي.

بعـد أن خرجـت حاولـت الاتّصـال بشـادي كثيـرًا ولكنّـه اختفى من جديد!

كيف له أن يتركني هكذا في أكثر الأوقات احتياجًا له؟!

بعـد المغرب كنـت قد جهّـزت نفسـي للخـروج، وجـدتُ الخالة سـعاد مـا زالـت فـي سـرير جدّتـي وكريـم فـي انتظـاري فـي بدلـة رماديّـة يبـدو وكأنّه ذاهـب لعرس! ألـم تجهـزي بعد؟ سـألت الخالة سعاد.

آسفة حبيبتي ولكنّي مُتعبةٌ، هل يمكنك الذهاب مع كريم؟

حاولت امتصاص غضبي وأجبتها: لا بأس.

***

الخيـال هـو ذلـك الثقـب الصغيـر فـي الواقـع الـذي نهـرب مـن خلالـه، الصور فـي الخيـال تبـدو مُشوّشـة ومهـزوزة، ولكنّهـا ملوّنة على عكـس الواقع حيـث الصور أوضـح.. وأعمـق ولكـنَّ ألوانَها لا تتعدى الأبيض والأسود!

كريم كان جزءًا من الواقع!

وإنّ التـوازن بيـن الخيـال والواقـع بداخلـك أشـبه بالمشـي على خيط رفيع.

ركبـت السـيارة بجـواره واتّجهنـا نحـو النيـل، تفاجـأت بأنـه قـد حجز مركب صغير في النيل!

كان أيّ مطعـم علـى النيـل يكفـي بالغـرض؟ أليـس كذلـك؟ سألت كريم وأنا أشعر أنّي مُجبرة على الوضع بأكمله.

آسف! كنت أحاول أن تكون تجربة مُميّزة لتحسين مزاجك.. قالها كريم وكان صوتُه مملوءًا باليأس.

لا تعتذر كريم، أنا مَن يجب أن يعتذر، فأنت منذ مجيئك وأنت تحاول مساعدتي، شكرًا لك على كلّ شيء.

اتّجهنا نحو المركب، أمسك بيدي ليساعدني على الركوب، كان يتعامل معي بلطفٍ مبالغ وكأنّي قطعةٌ من الزجاج يخشى كسرها!

جلسنا سويًا ولأوّل مرّة ينظر في عيني! كانت عيناه يملأها الكثير من العطف والحنان، كنت أرى إعجابه بي في كلّ تصرّفاته، ولكنّي كنتُ في عالم آخر، كانت روحي تسبح في عالم شادي.

توقّعت أن يسألني عنه أو عمَّا حدث وقت دفن جدّتي ولكنّه كان ألطف من أن يُزعجني بشيء.

كان الطقس باردًا ومنظر النيل رائعًا، هربت إلى ثقب الخيال وتمنيت للحظة لو كان هو شادي.

تحدّثنا كثيرًا عن عمله في الخارج، كان خجولًا للغاية، مقتصدًا في كلّ إجاباته.

لماذا لم تتزوّج حتّى الآن؟ سألته.

لا أدري، كانت هناك بعض المحاولات من أمّي، ولكنّها كانت تنتهي بالفشل دائمًا.

سارة، هل ممكن أن أسألكِ سؤالًا؟

لا داعي أن تسألني سؤالًا قبل السؤال كريم فقط، قل ما يدور في خاطرك.

ابتسم في خجل وأكمل حديثه:

أتذكرين حين كنا أطفالًا؟ كنت أحبّ أن نلهو سويًّا، كنت أحبّ أن نكون معًا أكثر من وجودي مع أختي شيرين، رغم هدوئك الدائم ولكنّكِ كنتِ قريبة منّي دائمًا.

نعم أذكر، كنت تحبّ أن أخرج معكما للتنزّه دائمًا، أذكر تلك المرّة عندما همست لك شيرين ولكنّي سمعتها: هل لا بُدَّ أن نأخذها معنا في كلّ مكان، هي غريبة أحيانًا أخاف منها.. أذكر أنّكَ خاصمتها وقتها من أجلي.

شعرت بإحراجه لا أدري لماذا تذكّرت الموقف هذا دون غيره! كلّ محاولاتي تلك الليلة لاصطناع اللطف كانت فاشلةً.

آسف سارة كنّا أطفالًا.. قالها كريم بابتسامة بائسة.

نظر إليَّ طويلًا ثُمَّ سألني:

ما سرّ حزنك سارة؟ أعلم أن جدّتك كانت تعني لك الكثير، ولكنّي أرى الحزن في عينيك كشجرة متأصلة جذورها بداخلك منذ كنتِ طفلة.

هل الحزن يُولد معنا كريم؟ سألته.

لا أعتقد، الحزن شعور ناتج من تجارب الحياة المؤلمة لِمَ نشعر بالحزن إن كنّا لا نمتلك سببًا واضحًا؟

ألا تظن أنّ هناك سببًا واحدًا واضحًا في العالم يستدّعي الحزن؟ لا بُدَّ من أنّك تعيش في كوكب آخر.

أفهم قصدك سارة، هنالك الكثير من الأسباب حولنا قد تثير الحزن فينا، ولكنّ هناك أيضًا الكثير من الأسباب التي قد تنبت الفرح بنا، ولكنّك لا تسمحين لها بالعبور من خلالك.

هل هذا نوع من جلسات العلاج النفسي؟ سألته ساخرةً.

لماذا دائمًا تحاولين إظهار جانب ليس بكِ؟ لقد كنا دومًا أصدقاءَ منذ الصغر، لماذا تضعين الآن حواجز بيننا.. قالها كريم بلهجة لوم محاولة منه لاستعطافي أو أن يشعرني بالذنب.

أيّ حواجز تتحدّث عنها؟ لقد سافرت فور دخولي الجامعة، ولم أركِ سوى في تلك الإجازات القصيرة التي كنت تزور الخالة سعاد، ماذا تعلم عن حياتي للحكم عليّ بالحزن أو بغيره؟

أنا لا أحكم على حياتك، كما أنّي أعلم الكثير عنك لقد كبرنا سويًا، أنا أعرفك سارة جيّدًا منذ كنّا أطفالًا.

ولكنّنا لم نعد أطفالًا! لم تعد أكبر همومي أنّ لعبتي قد كُسرت، أو أنّي لا أريد الاستيقاظ مُبكّرًا للمدرسة، لقد اختلفت

الحيـاة كثيـرًا كريـم، أصبحت امـرأة تركـض خلـف الحيـاة، والحياة لا تنظر خلفها حتّى لو ركضت ألف عام.

بـل أصبحـتِ امـرأةً جميلـةً، ولكنّـكِ تركضين فـي اتّجـاه خاطئ ليس خلـف الحيـاة كما تظنيـن، هنالـك الكثير مـن الأحلام فـي انتظاركِ كي تحققيها، ولكنّك اكتفيت بطويها في أوراق والنظر إليها.

شعرت بغضب شديد صرخت في وجهه:

كيف لك أن تدخل غرفتي وتفتش في أشيائي؟!

أنـا آسـف سـارة! أعـرف أن هـذا ليـس مـن حقّـي، ولكنّـي كنت أريد أن أقترب منكِ أن أكون جزءًا من أحلامك.

ولمـاذا كلّ ذلـك؟ التحليـل النفسـيّ لحياتـي وأحلامـي؟ لمـاذا تقتحـم خصوصيتـي بهـذا الشـكل؟ قلتهـا وقـد حاولـت أن أهـدأ قليلًا.

شعرت بتوتره وضيقه ثُمَّ قال في صوت ضعيف:

لأنّكِ تعنين لي الكثير.

تجاهلـتُ كلماتـه، وأمسـكت حقيبتـي وأنـا أنظـر علـى النيل من حولي، شعرت أنّي بفخّ لا أستطيع الهروب منه.

هـل يمكننـا العـودة الآن؟ لا أريـد أن أتـرك خالـة سـعاد وحدهـا وهي مُتعبة.. سألته.

في طريق العودة لم ننطق بكلمة طوال الطريق.

عندما عُدنا كانت خالة سعاد نائمة، شكرتُ كريم واتّجهت إلى غرفتي.

للحظة شعرت بحركة في الغرفة، أشعلت النور فإذا به جالسًا على مكتبي يقرأ كتاباتي.

شادي! هل سألتك الخالة سعاد عن شيء؟ أين كنت؟ حاولت الاتّصال بك كثيرًا.

يبدو أنّه يحبّك! قالها شادي بحزن.

تقصد كريم؟ أكنت تراقبني أم أنّ خالة سعاد أخبرتك؟ لا شيء بيننا هو فقط يحاول مُساعدتي.

لا أحتاج أن أراقبك سارة.. أنا دومًا معكِ.

للأسف شادي هذا ليس صحيحًا، أنا أحتاج إليك كثيرًا ولا أجدك.

يفصلنا الواقع أحيانًا سارة، لكن في الخيال أنتِ دومًا لي.

في الخيال؟ هل من المفترض أن يطمأنني حديثك شادي؟ أنا لا أحتمل المزيد من الألغاز.

يومًا ما ستعرفين جيّدًا كم أحببتك.. قالها شادي بعين ذابلة، كان وجهه شاحبًا كثيرًا ويبدو عليه الإرهاق.

مـاذا بـكِ؟ أنـت بخيـر؟ هـل تنـوي أن ترحـل عنـي؟ سـألته بخوف.

اقترب منّي وقبّلني بقوّة، نظر طويلًا إلى عيني.

كانـت عينـاه مُخيفةً تلـك الليلـة، كانـت قبلتـه مختلفـةً، عناقه لي كان مختلفًا كلّ شيء كان يبعث مزيدًا من الخوف بداخلي.

كان هنـاك طَـرْقٌ غريـبٌ علـى النافـذة، فـي البدايـة ظننـت أنّهـا ربَّمـا تمطـر فـي الخـارج؛ لكـن لـم يكـن هنـاك أثـر للمطـر فـي الشـارع، أغلقـت النافـذة جيّـدًا، وعـدت إليـه فوجدتـه نائمًـا فـي سريري، لا بُدَّ أنّه كان مُتعبًا للغاية.

اسـتلقيت بجـواره، قبّلته على جبينه، لمسـت شـعره ونظـرت إليه طويـلًا.. نمـت علـى صـدره ولكنّـي لـم أسـتطع أن أسـمع ضربـات قلبـه.. كنـت خائفـةً جـدًّا مـن فقدانـه، احتضنتـه بقـوّة وبكيـت.. أغمضت عيني للحظة فكان قد رحل!

***

البعـض يـرى الطبيـب النفسـيّ علـى أنّـه سـاحر سـيمنحك تعويذته الخاصة التـي ستشـفي كلّ جراحـك! والبعض يـراه وكأنَّه مسـافر غريب لديـه كلّ وقـت العالـم ليسـمعك! الطبيـب النفسـيّ يُمكنـه أن يُفسّـر شـعورك، ولكنّـه لا يملـك مفاتيـح حياتـك، يمكنـه أن يُوقـف النزيف.. أن يُخدّر الألم.. شفاؤك من جرحك أمرٌ متروكٌ لك تمامًا!

في صباح اليوم التالي اجتمعنا نحن الثلاثة على طاولة الإفطار.

بدأت الخالة سعاد الحديث.. كيف كانت ليلتكم أمس؟ باعتذر لكِ سارة أنّي لم أستطع التنزّه معكما، فقد نمت من شدّة التعب ولم أشعر بشيء.

أجبتها: لا بأس خالة، كانت ليلةً جيّدةً، كريم اعتنى بي، وددت أن أعتذر لكِ أنا عن مجيء شادي أمس هكذا دون موعدٍ!

لمحت نظراتها لكريمٍ في دهشةٍ، ثُمَّ نظرت إليَّ!

مَن شادي صغيرتي؟ ومتى جاء أمس؟!

تسمرت للحظة وشعرت بالإحراج، لا بُدَّ من أنّها تراني الآن فقدت عقلي.

لا شيء يبدو أن بعض الأمور اختلطت عليَّ، أجبتها.

بعد الإفطار طلبت الخالة سعاد أن نتحدّث سويًا.

أمسكت بيدي بين كفيها كأنَّها عصفورةٌ تحاول إطعامها وتخشى أن تفزع وتطير من بين يدها:

اسمعي سارة، أعلم أنّ الوقت غير ملائم لما سأقوله الآن، ولكنّكِ تدركين أنّ بعد وفاة جدّتكِ لم يبقَ لكِ سوانا أنا وكريم نحن عائلتك صغيرتي، لن أسألك عن شادي إن لم تودِّي

الحديث عنه، ولكنّي سأكون سعيدةً للغاية إن اعتبرتني مثل والدتك وأخبرتني بقصته.

كريم سيبقى في القاهرة أسبوعين على الأكثر، ولا شك بأنكِ لاحظتِ اهتمامه بكِ، كريم يأمل أن تصبحي زوجةً له فهو لديه إحساس دائم أنّه مسؤول عنكِ، وأنا لن أعيش للأبد وسيسعدني أن أطمأن عليكما قبل موتي وأرى ذريتكما وهذه كانت رغبة جدتّك أيضًا قبل موتها.

لكن تأكدي إن كان هناك رجل آخر في حياتك، فأنا سأكون أيضًا بجوارك حتّى أطمئن عليكِ في بيتكِ، لكن لا بُدَّ أن تتأكّدي من صدقه أوّلًا، لا أريد قلبكِ النقي أن يُكسر فأنتِ لا تعرفين الكثير عن الحياة وخبراتك محدودة.. أنهت حديثها بقبّلة على جبيني.

بالرغم من أنّ كلّ ما قالته الخالة سعاد متوقعٌ، ولكنّه لم يمنع شعوري بغضب شديدٍ تماسكت قليلًا ثُمّ قلت:

جدّتي توفت منذ أيّام، وأنتِ تتحدّثين عن عرسٍ وزواج! لا بُدَّ أنَّها كانت لا تعني لك شيئًا.

نظرت إليَّ في صدمة:

سامحكِ الله سارة، جدّتك كانت صديقتي الوحيدة، وكنت أحبّها كثيرًا، أنا لم أذكر عرسًا، فقط زواج ورقي دون أن ندعو

أحـدًا، وبعـد تخرّجـك يُمكـن أن نُقيـم حفـلاً صغيـرًا، كمـا أنّ كريم سوف يُسافر لعمله وأنتِ تقيمين معي في شقتي.

أجبتها بعد أن نفد صبري:

بالتأكيد لـن ندعـو أحدًا يـا خالة؛ لأنـه ليس هنـاك من ندعـو! مَن لم يهتـم أن يحضـر جنازة جدّتـي لن يأتـي عـرس حفيدتهـا بالطبع.. أرجـوكِ خالـة لا أريـد التحـدّث فـي مثـل هـذه الأمـور لا اليـوم ولا غدًا ولا أيّ يوم، اتركوني وحدي.

اتّجهـت لغرفتـي وأنا أشـعر بحـزنٍ يعصـر قلبـي.. لم أعـد أدري ماذا أفعل؟ وأين شادي وسط كلّ هذا العبث؟

ثُـمَّ بحماقـة فكّرت فـي الحـلّ السـحري الذي سيكشـف لـي كلّ الأسـرار ويحـلّ كلّ مشـاكلي ويجعلّنـي سـعيدةً ويُحقّـق لـي أحلامي!! فكّرت في أن ألجأ إلى الطبيب النفسيّ.

ظننـت للحظـة ببـراءة طفلـة أنّ الطبيـب سـيمنحني وصفـةً فوريّة للنسـيان، سـيمنحني حبّـة دواء تُجمـد مشـاعري، تنظّـم أفـكاري وتجنبني البكاء!

عـدت إلـى الإسـكندرية صبـاح اليـوم التالـي، وبـدأت رحلـة البحث حتّى وجدتها!

كانت السـاعة السـابعة مسـاءً والعيادة مكتظة بالمرضـي، لا بُدَّ أنّ العالم كلّه قد فقد عقله أو أنّ الحزن يحاصره!!

مساء الخير، كيف حالكِ سارة؟ مدّت يدها الدكتورة هند لتصافحني.

مساء النور، سلّمت عليها وكنت أنتظر أن تدعوني لأستلقي على الكرسي، لأبدأ أحكي قصة حياتي كما الأفلام ولكنّها لم تفعل.

جلست أمامها على كرسي المكتب وانتظرتها تبدأ الحديث.

ما بكِ سارة؟ حدثيني عن نفسكِ.. سألتني بصوت هادئ استفز كم الغضب بداخلي.

أنا لست بخير، لم أعد أفصل الواقع عن الخيال، كلّ شيء في حياتي يحمل أكثر من معنى، أنا أحبّه كثيرًا وهو آخر مَن تبقّى لي في هذا العالم! ودون أن أشعر بكيت مجرد ما ذكرته.

تمالكِ أعصابكِ! كلّ شيء سوف يكون بخير.

مدت يدها بالمنديل وهي تحاورني:

ما المشكلة سارة؟ هل يمكن أن تُفسّري لي ماذا يحدث معكِ حتّى أستطيع مساعدتكِ؟

أخبرتها كلّ شيء عن شادي، وعن وفاة جدّتي، وعن الكوابيس التي تراودني، فكان ردّها مختصرًا وغريبًا؛ أأنتِ واثقة من حبّه لكِ؟

أجبتها دون تفكير:

نعم! ولكنّ هناك سرً ا وراء اختفائه المفاجئ لا أدري عنه شيئًا، مما يبعث الشكّ في إدراكي للأشياء لا الشكّ به.

اسمعي سارة! سأطلب منكِ طلبًا حتّى نتمكّن من حلّ الموقف، أنا لا أدري إن كانت لديكِ مشكلة في رؤيتك للأشياء أم أنّه شاب مراوغ يلهو بمشاعركِ ويحاول أن يُثير خوفك، حيث إنّكِ لا تعلمين الكثير أيضًا عن حياته؛ لذلك أنصحكِ أن تسألي عنه، وتبحثي خلفه، فقد يكون مُتزّوجًا أو قد يكون كاذبًا في كلّ ما قاله لكِ عن عمله.

طرقت الممرضة الباب ثُمَّ دخلت مسرعة: دكتورة! هناك حالة طارئة بالخارج.

سمعتُ صراخًا عاليًّا وبنت في سنّ المراهقة تبكي وتصرخ وتتنفس بصعوبة، ويحاول أبوها أن يُهدئها بلا جدوى.

تركت العيادة وأنا في حالة يأس، لم تشعر حتّى الطبيبة برحيلي أو ربَّما لاحظت ولم تبالي!

اتّجهت نحو البحر ومشيت كثيرًا لا أدري كم مرّ من الوقت؟

بحثت عنه حولي كثيرًا، تمنيت أن أخبره بما قالت الطبيبة، وبما قالته لي الخالة سعاد، أو ربَّما وددت أن أغرق في صدره ولا أنطق بشيء.

تذكّرت كلمات الدكتورة هند وحاولت أن أُصدّق أيَّ شيء منها؛ لأنها تبدو التفسير المنطقي لكلّ ما يحدث، لكنّها لا تدري عمَّن تتحدّث، فهي لم تعانقه، لم تسمعه، لم تنظر إليه، ولو فعلت لكانت وقعت في حبّه واعتذرت له عن سوء ظنّها.. لكن لأنّها جزءٌ من الواقع افترضت الأبيض أو الأسود فقط.

وقفت أمام البحر وأغمضت عيني وبروحي خاطرته، عبر نسمات الهواء البارد، عبر الأمواج، عبر كلّ مار أطفالًا ورجالًا ونساءً.

شادي.. اشتقت إليكَ

أحببتك خيالًا وعشقتك واقعًا

أين أنتَ؟!

صرت كوكبًا يدور في فلكك

فإن رحلت

اختل نظام الكون!

واختل توازني.

عدت غرفتي الساعة الثانية عشرة صباحًا، استلقيت على السرير، واطفأت الأنوار، احتضنت وسادتي وحاولت أن أغفو قليلًا حتّى أخرس هذا الضجيج برأسي.

شعرت بيده أثناء نومي تلمس ذراعي، شعرت بأنفاسه وهو يُقبّل عنقي، لم أفزع تلك المرّة! كنت انتظره، شعرت أنّي داخل حلم، ولم أعد أكترث إن كنت مستيقظة أم نائمة؟

لا يهم.. فهو هنا الآن.

عانقته بقوّة.. تحسّست وجهه في الظلام، قبّلته وتحسّست جسده كان عاريًا تمامًا، خلعت ملابسي، أمسكت رأسه برفق وهمست في أذنه: أنا لك جسدًا وقلبًا وعقلًا، وقد حان الوقت! أفعل بي ما شئت!

ودون أن ينطق بكلمة حقّق لي ما طلبت وكأنّ أجسادنا قد وثّقت ذلك العشق.

***

أحيانًا نحيا الكذب بكلّ جوارحنا، ونستمتع بكلّ لحظة به رغم اليقين أن ما نعيشه مجرد كذبة، ولكنّها تمنحنا الكثير من الراحة، فنظلّ نتمسّك بها حتّى آخر قطرة، نتغافل عن الحقائق بل أحيانًا قد نُزيّفها لتتلاءم مع ما نعيشه من كذب! لكن لماذا نفتّش عن الحقيقة إن كانت الكذبة رائعة؟!

في صباح اليوم التالي كنت أشعر براحة رغم أنّ شيئًا لم يتغيّر، ولكنّ وجوده تلك الليلة كان مخدرًا قويًّا للألم حتّى وإن كان حلمًا.

لـم أذهـب للجامعـة ذلـك اليـوم كنـت أشـعر أنّـي فـي حلـم، وأردت أن أبقـى بـه أطـول وقـت، كان الطقـس مختلفًـا.. الشـمس مشـرقة والطقـس دافـئ أخيـرًا.. فكّـرت أن أتجـوّل فـي المدينـة، أحتسـي قهـوة فـي أيّ مـكان، وأكتـب لشـادي ربَّمـا ينجـح التخاطر كما نجح أمس.

لا أدري كـم مـرّ مـن الوقـت أثنـاء السـير حتّـى توقفـت فجـأة؟! عندمـا رأيت علـم المغرب أعلـى المبنى، تسـمرت لدقائـق وتذكّرت كلمات الدكتورة هند.

كان بداخلـي صوتـان، صـوت يرغـب فـي أن يركـض بعيـدًا وألَّا يعـرف شـيئًا، وآخـر يلتمـس الحقيقـة، يخدعنـي بـأنّ ربَّمـا الحقيقة تطمئني!

كم حمقاء أنا؟! فالحقائق والكذب مثل الماء والزيت.

كيف اختلط عليَّ الأمر؟

وبشـجاعة مقاتل لا يخشـى المـوت، اتّبعـت نصيحة دكتـورة هند ودخلت لأبحث عنه.

مرحبا سيّدتي! كيف لي أن أساعدك؟ قالها الحارس بالخارج.

أسأل عن شخص اسمه شادي يعمل هنا.

كانت ضربات قلبي تتسارع وكأنَّها في ماراثون!

آسف.. لكن لا أذكر أحد هنا بهذا الاسم، أجابني الحارس.

هل يمكنني الدخول أرجوك فهذه مسألة حياة أو موت، سألته وأنا أرتجف.

لا بأس يمكنك السؤال في الداخل ربَّما أحد يستطيع إفادتك.. قالها الحارس وقد أظهر بعضَ التعاطف.

دخلت المبنى، وكان هناك أحد الموظفين اقترب منّي ونظر لي مُنتظرًا سؤالي دون كلمة منه.. سألته عن شادي وكان نفس ردّ الحارس!

ولكنّي متأكّدة أنّه يعمل هنا، أرجوك حاول أن تُساعدني، حاولت استعطافه كي يمدني بأيّ معلومة عن شادي.

آسف سيّدتي ولكنّي متأكد أيضًا أنّه لا يوجد شخص بهذا الاسم، هل لديك صورة له؟

بحثت كثيرًا في هاتفي، لم أجد أيّ صور لنا! فكّرت للحظة كيف للخالة سعاد أن تعبث بهاتفي؟!

كان الموظف قد نفد صبره، اعتذرت له ومضيت نحو البوابة حتّى ناداني:

مهلاً! كان يعمل معنا شاب اسمه شادي بالفعل، ولكنّه تُوفي منذ فترة بعيدة.. كان صديقًا مُقرّبًا لي -رحمه الله- قالها بصوتٍ حزينٍ.

هل لديك أيّ صورة له أرجوك؟! سألته.

أتذكّر صورةً جماعيّةً لنا منذ ثلاث سنوات.. لحظة سأحضرها لكِ.

غاب بضع دقائق شعرت وكأنَّها عمرٌ بأكمله.

ها هو شادي يرتدي بدلة سوداء، هل هو مَن تبحثين عنه؟ سألني بفضول.

تسمرت للحظة ولم أقوَ على النطق، تمالكت نفسي قليلاً وسألته:

هل يمكن أن تخبرني سبب وفاته؟

كان يومًا أليمًا! بعد اختفائه يومين وجدناه في شقة كان يستأجرها مؤقتًا في ستانلي، غارقًا في حوض الاستحمام، البعض ادّعي أنّه قد يكون انتحر، لكن حتّى الآن لا أحد يعرف! هل كنتِ على صلة به؟ سألني الموظف.

أين كانت شقته؟ سألته متجاهلة سؤاله.

أخبرني بعنوانه! كان نفس عنواني الحالي!

غادرت القنصليّة في حالة من اللا وعي!

شعرت بكلّ شيء حولي ينهار، المباني، الطرقات، السيارات، كلّ شيء أصبح كتلةً من الرماد.

عـدت إلـى غرفتـي فـي حالـة يُرثـى لهـا، فهـا قـد زاح الضبـاب الـذي عشـت بـه أسـعد لحظـات حياتـي! هـا قـد وجـدت تفسـيرًا لحصـاره واختفائـه، وجدت تفسـيرًا لِمَ فـي كلّ مـرّة كنا فـي المطعم كنت أدفـع حسـابي فقـط، وأنـه لا يلمـس طعامـه؟! وجدت تفسـيرًا لِـمَ عطـره فـي وسـادتي؟! وجـدت تفسـيرًا لِـمَ لـم تـدرِ عنـه شـيئًا الخالـة سـعاد! ولِـمَ وجدتـه جثـةً فـي قبـر جدّتي! وجـدت التفسـير المنطقـي لـكلّ شـيء غيـر منطقـي، لكـن مَـن يُفسّـر حكمـة الأقدار في أن تقتلني باسم الحياة وأن تحيه باسم الموت؟!

اتّجهـت للحمـام ونظـرت كثيـرًا لحـوض الاسـتحمام وتخيلتـه غارقًـا لا يقوى علـى التنفّـس، تخيلـت البخار يمـلأ المـكان ورائحة الموت تبعث الفزع في أركان الغرفة.

صرخت.. شاااادي.. أين أنتَ؟

شاااادي لقد عرفت.

بكيتُ كثيرًا.

وصرختُ كثيرًا.

حتّى فقدتُ صوتي وفقدتُ الوعي.

***

صباح يوم جديـد من أيّـام الصيف شـديدة الحـرارة فـي مراكش، كنـتُ أجهـز للذهـاب إلـى الجامعـة حيـن نادتنـي والدتـي شـادي الفطور جاهز.

اجتمعنا سويًا أنا وأمّي وأبي وأخي سعد الأكبر منّي بثلاثة أعوام، أذكر أن ذلك النهار كان آخر نهار نجتمع فيه سويًا على طاولة واحدة.

كان هناك صمت غريب على غير العادة لم أكن أدري ما سببه؟!

بدأت الحديث مع أخي:

هل من جديد في إجراءات سفرك؟

أجل، في خلال شهرين على الأكثر سوف أكون في النعيم أخي، أراك تشعر بالغيرة، لكن لا بأس يمكنك اللحاق بي بعد تخرّجك إذا حالفك الحظّ!

قالها سعد وهو يضحك، كان له دومًا حس فكاهي يأخذ كلّ ما في الحياة على محمل السخرية، رغم كونه أخي الأكبر، لكن دومًا ما كنت أشعر بالعكس.

أنا لا أنوي السفر، لا أقوى على الغربة.. سوف أعيش في المغرب وأموت به.. أجبته.

ضحك سعد في سخرية؛ إذن لن تعيش أبدًا.

شعرت أنّ هناك خطبًا ما بين أمّي وأبي، كانت شاردةً ولا تأكل، ظننت أنّ ربَّما حديثنا عن السفر قد أحزنها، نظرت إلى أبي فوجدته هو الآخر شاردًا ولم يرفع عينيه عن طبقه.

لطالما اتّسم بيتنا بالهدوء، ذلك الهدوء المخيف الذي تنتظر العاصفة أن تهب في أيّ وقت لتطيح به.

أبي كان رجلاً سياسيًّا يتسمُ بالاتزان في كلّ شيء حتّى في مشاعره، كان كلّ شيء لديه قابلاً للحساب بالورقة والقلم، تعلّمت منه الكثير من الحكمة والصبر على مصاعب الحياة، كانت شخصيتي أقرب كثيرًا إليه من أخي سعد الذي اعتاد أن يعيش الحياة دون حساب لأيّ شيء.

أما أمّي فكانت ربّة منزل تركت عملها في التدريس منذ كنّا أطفالًا كي تعتني بنا، كانت جميلة رغم علامات الزمن التي لم تنسَ أن تضع بصماتها عليها، كانت علاقاتها بأبي يسودها الاحترام أكثر من المشاعر.

اتّجهت إليها في غرفتها بعد الفطور لأطمئن عليها.

ماذا بكِ أمّي؟ هل أنتِ بخير؟ سألتها.

سرحت قليلًا في عيني ثُمَّ أجابتني بحزن:

هل تعلم أنّكَ نسخة من أبيك شادي، لك نفس ملامحه الرجوليّة، نفس قدرته على كتمان مشاعره حتّى مجال دراستك اخترت نفس طريقه.

وهل هذا شيء سيئ؟ سألتها وأنا قلق عليها كثيرًا فلم أرَ كم الحزن في عينيها هذا من قبل!

لا عزيـزي، ولكـنّ والدك قـد خذلنـي بعد خمسـة وعشـرين عامًا من الزواج.. قالتها أمّي وقد بدأت في البكاء.

احتضنتهـا وحاولـت تهدئتهـا، كـم مـن الصعـب مواسـاة من هو دائمًـا مصـدر مواسـاتك؟ أن تـرى الدمـع فيمَن تـراه دومًا فـي وضع قـوة، فحيـن تهزمنـا الحيـاة تصبـح قوتنـا السـابقة عبئًـا زيـادةً علـى قلوبنا المنهكة.

أخبرينـي أمّـي مـاذا حدث لـكلّ هذا الحـزن؟ سـألتها وأنا أمسـح دموعها بكفي.

لقـد فقـدت أنوثتـي شـادي، فقدتهـا تمامًـا حتّـى صـرت أشـبه بالمسـخ.. لا يمكـن أن تعـرف أبـدًا ما هو إحسـاس امـرأة تذبـل كلّ يـوم فتصبـح زهـرةً عديمـة الرائحـة واللـون، مـن يحـبّ أن يحتفـظ بالزهـور البلاسـتيكيّة؟ فهـي تفتقد الحيـاة، لا تحتـاج لرعاية فتنسـي وجودهـا مـع الوقـت لا يتذكرهـا سـوى ذرات التـراب حيـن تسـتقر فوق أوراقها المنسية!

أمسـكت وجههـا في رفـق وقلـت؛ أمّـي.. أنـا لا أفهـم شـيئًا، فأنا أراكِ دوما جميلةً، أتمنّى أن أتزوّج يومًا مَن هي في جمالك!

ولكنّ والدك قد سـئم هـذا الجمـال إن كان موجـودًا كمـا تدّعي، لقد وقـع في حـبّ جمـال برعـم لـم يتفتح بعـد، مـا أصعـب الخيانة عندمـا تمنـح كلّ عمرك لمَـن لا يسـتحق؟! قالتها أمّي بأسـى شـديد، ثُـمَّ أعطتنـي هاتفهـا لأشـاهد صـور أبـي مـع شـابة فـي منتصـف العشرينيات ذات جمال ناعم تبدو كأنَّها طفلتُه المُدلّلة.

لـم أقوَ علـى النطـق، فأبـي كان مثلـي الأعلـى، لـم أتوقّع أبـدًا أن يقـع ضحيـة لشـهواته، حاولـت التماسـك لأفكّر فيمـا سـأقوله لأمّي في هذا الموقف الذي تمنيت ألَّا أعيشه أبدًا.

أنا آسـف أمّي أتخيّـل الآن كـم الألم الـذي تشـعرين بـه، ولكنّك تعلميـن أنّ الرجـل بعـد الخمسـين يعـود طفـلًا، ربَّمـا هـذه نـزوة منتصـف العمـر كمـا يُقـال، لطالمـا عـاش أبـي عبـدًا للعمـل، وربَّما أغرتـه تلـك الشـابة بحيـاة ورديّة فـي وقت حـرج مـن عمـره، ولكنّه بالطبـع سـيندم ويعـود إليـكِ ليطلـب سـماحك، خاصـةً أنّـه لـن يُضحّي بسـمعته فـي عملـه وحياتـه التـي بناها سـنوات طـوال مقابل نزوةٍ كهـذه! أجبتهـا وأنا نفسـي لسـت مقتنعًـا بما أقـول، فأنـا أعرف أبي جيّدًا، ولا بُدَّ من أنّ هناك شيئًا قويًّا ليقع في مثل هذا الفخ.

لا شـادي، ليسـت شـهوةً أو نـزوةً كمـا تظـنّ، فأبـوك قـد وقع في حبّهـا! قالتها وهـي تبكـي بـكاءً شـديدًا، لـم أدرِ إذا كان بكاؤهـا حبًّا لوالـدي أم وجعًـا لكرامتهـا أم حزنًـا علـى سـنوات عمرهـا التـي زرعتها في أرض جرداء لم تنبت سوى حنظل!

هل واجهتِ أبي بتلك الصور؟ سألتها وأنا أخشى الإجابة.

تماسكتْ قليلًا ثُمَّ قالت:

نعـم واجهتـه، وكمـا قلـت لـك لقـد اعتـرف بحبّهـا وأنـه ينـوي الـزواج منهـا، وطلبـت الطـلاق! جففـت دموعهـا بيدهـا وكأنّ قـرار الطلاق أشعرها ببعض القوّة.

هل يمكن تأجيل أيّ قرارات مندفعة حتّى أتحدّث معه؟

ليس هناك فائدةٌ من الكلام، أفعل ما شئت لن يتغير شيء!

قبّلتها في رأسها طلبت منها أن تستريح قليلًا ورحلتُ.

***

مواجهة أبي كانت أمرًا لا بُدَّ منه، فبالرغم من صدمة أمّي وقرار الطلاق، لكن كنت أرى في عينيها أنّها تلتمس منّي حلّ الموقف، خاصةً أنّها لم تخبر أخي سعد، فقد وثقت فيّ، وكنت أشعر أنّها ما زالت تأمل بأنّ حديثي معه قد يُغيّر من سوء الوضع أو قد يعدله عن قراره.

في مساء ذلك اليوم انتظرت أبي كثيرًا حتّى صارت الساعة الواحدة صباحًا، وغلبني النعاس على الأريكة أمام التلفزيون، أما أمّي فلم تخرج من غرفتها منذ رجوعي من الجامعة، ربَّما كانت في داخلها تنتظره أيضًا وقلقةً على غيابه، كان سعد أخي في عالمه الخاص مع أصدقائه، لا يدري شيئًا ممَّا يدور في المنزل! يا لك من محظوظ سعد فأنت من تُحرّك عالمك.. لا شيء حولك يستطيع العبث برأسك.

استيقظت على ضوء النهار.. جلست قليلًا حتَّى أدركت أنّ أبي لم يأتِ بعد.. سمعت صوت سعد من خلفي يُنادي

أين الفطور! أنا جاااائع.

اخفـض صوتـك لا بُـدَّ مـن أنّ أمّـي لا تـزال نائمـة، فهـي لـم تنم جيّدًا أمس.

اقترب سعد منّي وسألني:

مـاذا يحـدث؟ أمّـي لـم تسـتيقظ لتجهيـز الفطـور، وأبـي ليـس بالبيـت، وأنـت نائـم علـى الأريكـة، أهـذا كلّـه لأنّ ميعاد سـفري قد اقتـرب؟ لم أعـرف أنّكـم تحبونـي كلّ هـذا الحـبّ.. ثُـمّ ضحك في لا مبالاة.

أتظن أنّ العالم كلّه يدور حولك؟ سألته في ضيق.

ما بك أخي؟ أمزح معك.. أخبرني ما الأمر؟

لقـد تـرك أبـوك المنـزل، وأمّـي طلبـت الطـلاق بعـد كشـفها لخيانته مع فتاة في العشرينيّات من عمرها.

اتّسعت عيناه وقال وهو يحك ذقنه:

أبـي! هـذا اللعـوب! لقـد كنـت أشـك طـوال تلـك السـنوات أنّ لديه قلبًا وشيئًا آخر، لا بُدَّ من أنّها جميلة وشقيّة تلك الفتاة.

حقًّـا! هـل هـذا كلّ مـا همّـك فـي الأمـر سـعد؟ قلتهـا وقـد نفد صبري.

اهدئ يـا أخـي لا أدري لمـاذا دائمًا تُبالغ فـي ردّة فعلـك للأمور؟ أبـوك رجـل عجـوز وأراد بعـض الإثـارة فـي حياته، سـوف يمـلّ مع

الوقـت ويعود لأمّـي، وكأنّ شـيئًا لم يكـن. هـذا إن اسـتطاع أن يفعل شـيئًا مـع تلـك الفتـاة، لا أظـن أنّ لديـه طاقـةً لخـوض مثـل تلـك المعـارك.. آه هـذا الكهـل! قـد يحتـاج بعـض المُقويـات.. قالهـا وهو يضحك.

كنـتُ مصدومًـا مـن ردّة فعـل سـعد رغـم معرفتـي بـه جيّـدًا، ولكنّـي لـم أكـن أتوقّـع بأنّـه -حتّـى فـي مثـل ذلـك الأمـر- سـوف يكـون أحمـقَ هكـذا.. حقًّـا الشـخصية كالبصمـة لا تتجـزأ مهمـا اختلفت المواقف.

اسـمع سـعد أيًّـا كان رأيـك، احتفظ بـه لنفسـك ولا تتحـدّث مع أمّي حتّى لا تثير غضبها أكثر.

لك ما أردت أخي.. والآن ألن نفطر اليوم؟

نظـرت إليـه فـي غضـب وتركتـه واتّجهـت نحـو غرفـة أمّـي لأطمـأن عليهـا.. كانـت نائمـةً مُحتضنـةً وسـادتها، قبّلتها فـي جبينها وغادرت في هدوء حتّى لا أوقظها.

لم يكـن هنـاك حـلّ سـوى أن أذهـب لأبـي مـكان عمله وهـا قد ازداد الوضع صعوبةً.

في الطريق إليه تخيلت مئات من السيناريوهات للحوار.

مـاذا يمكن أن يقـال فـي الخيانة؟ تلـك الكلمـة الثقيلة التـي تغلق الباب فـي وجـه أيّ كلمات أخـرى.. لا مبـرر يمكنـه أن يُخـدّر ذلك

الألـم الـذي قـد يصيـب قلـب أحـبّ بصـدق و طعـن بالكـذب.. الخيانـة تكسـرنا.. تهشـم ثقتنـا بأنفسـنا.. تثيـر الشـكّ فينـا أكثـر من الشكّ في الآخر.

وما أصعـب أن تكـون الحكـم بيـن اثنين مـن ذاتك! كيـف يمكن أن تكـون القاضـي والدفـاع؟ أن تنصـر الضحيـة وتلتمـس العـذر للمتهم؟

وصلـت المكتـب أخيـرًا، ويبـدو أن أبـي كان فـي انتظـاري فقـد سمحت لي السكرتيرة بالدخول فور وصولي دون أن تسأله.

للوهلـة الأولـى عندمـا رآنـي كان يعـرف أنّـي علـى علـم بـكلّ شـيء.. كانـت عينـاه منكسـرةً لا تقـوى علـى النظر إلـيَّ! لـم أصدّق أنّ هـذا هـو أبـي الـذي كنـت أخشـى نظراتـه لـي عندمـا أخطـأ، وأختبئ في غرفتي عندما كنت صغيرًا كي أتحاشى مواجهته؟!

كيـف يمكـن للحيـاة أن تُبـدّل الأدوار؟ كيـف يمكـن للخطـأ أن ينتهـك قوتنـا؟ أن يُحوّلنـا مـن تمثـال مـن الكمـال إلـى لحـن شـاذ يفسد سيمفونيّة متوازنة؟

كيـف حالـك شـادي؟ كنـت أعلـم أنّـكَ سـتأتي وقـد وددت الحديث معك؟

كيـف تتوقّـع أن يكـون حالي يا أبـي وأنـا أرى بيتنـا الهـادئ ينهار بعد كلّ هذا العمر؟

اسمع يا بُني.. أنت وسعد الآن رجال، هو سوف يسافر لاستكمال دراسته، وأنت سيكون لك مستقبل بعد التخرّج في السفارة، وكلاكما سوف يتزوّج ويكون له حياته الخاصة، وأنا قد قضيت عمرًا كاملاً في رعايتكما، وقد حان الوقت كي أستقر بحياتي الخاصة بالشكل الذي أجد به راحتي.

لقد تحدّثت عني وعن سعد فماذا عن أمّي؟ سألته.

أمّك امرأة رائعة شادي! ولكنّي قد عشت دون قلب خمسة وعشرين عامًا.. شعرت معها بجوّ الأسرة ورعايتها لي كزوجة، ولكنّي لم أشعر قط بحبّها، فقدت الكثير من المشاعر كرجل وأحيانًا قد تمنحنا الحياة الفرص في الوقت الخطأ أو بالصورة الخطأ، ولكنّها على الأقل تُذكّرنا قبل النهاية.. لا تظن الأمر سهلًا عليَّ فأنا متعبٌ كثيرًا، وبداخلي الكثير من الصراعات التي لا تعرف عنها شيئًا.

كنت أشعر بضعفه أكثر، وأنا أنظر إلى شعره الأبيض والتجاعيد حول عينيه، كيف لم ألاحظ علامات العمر عليه من قبل؟ ليتك تعرف أبي الصراع الذي بداخلي أنا أيضًا.. حاولت أن أحلّ الموقف دون أن أعاتبه أو أقسو عليه.

هل يُمكنك على الأقل أن تظلّ في المنزل؟ لا داعي لأن تُنهي كلّ شيء بتلك الصورة! سألته.

والدتك يا بُني من طلبت منّي الرحيل.. لا يمكن أن أبقى فوجودي يزيد من آلامها الذي تمنيت ألّا أكون أبدًا سببًا فيها..

ولكنّي هنا يا شادي دائمًا من أجلك متى احتجت إليّ سوف تجدني.

غادرت المكتب وأنا لا أعلم ماذا سأخبر أمّي، لم أكن أتوقّع أن ينهار أبي، ويعترف بالذنب، ويرجوني السماح، ويطلب العودة إلى المنزل، كنت أعلم أنّه قد اتّخذ قراره الذي لا عودة فيه.. ورغم تعاطفي مع أمّي لم أكن أحقد عليه، كان كلاهما محطمًا، يبحث عن إجابة لأسئلة كثيرة ألقتها الحياة في طريقهما دون أن تترك لهما مخرجًا منها.

***

سافر سعد بعد رحيل أبي بأسبوعين أو أكثر، صار البيت فارغًا تمامًا، فبالرغم من أنّ سعدًا مُختلفًا تمامًا عني، ولكنّه كان يُضيف جوًّا من المرح في المنزل افتقدته كثيرًا، أنا وأمّي وحدنا حول الطاولة صرت أحفظ حديثنا اليومي، كيف سيمضي السؤال المعتاد عن الدراسة، وسؤالي المعتاد عن صحتها، كنت أتجنّب الحديث في أيّ أمر يخص أبي.. كنت أحاول ألَّا ألمس هذا الجُرح المفتوح بيدي.

رأيت أمّي في كلّ يوم تذبل أكثر، تكبر أعوامًا لم تعشها بعد.. وكنت أفشل دومًا في إسعادها في كلّ محاولة لأن نتنزّه سويًا أو أجلب لها هدية تحبّها، لم يكن هناك شيء يضفي البهجة على حياتها.. تمنيت أن يكون لي نفس الحس الفكاهي مثل سعد

لربَّما كنت استطعت أن أرسم ضحكة حتّى لو مؤقتة على هذا الوجه الحزين الذي أصبح كلّ ما أملك.

مضت الأيّام كئيبةً..كيف يمكن لكلّ شيء أن يتغيّر في لمح البصر ودون سابق إنذار، وكيف علينا أن نتأقلم على أيّ وضع أيّ كان بصدر رحب ونفس مفتوحة على الحياة؟

في ليلةٍ من ليالي الحزن.. كنتُ بائسًا لدرجة الرغبة الشديدة في الهروب.. الهروب من ضجيج رأسي، من أعين أمّي الحزينة، التي لا أعرف لسبب ما كنت أشعر بأنّ لي دورًا فيها.. اقترح على صديق بأن نذهبَ إلى إحدى الحانات كي نكسرَ الروتين اليومي ونشعر ببعض الحماس.

في المساء اطمأننت أنّ أمّي قد نامت وتركت لها رسالة أنّي سوف أسهر مع صديق لي.. اتّجهنا سويًا نحو منطقة لأوّل مرّة أراها خارج أسوار المدينة القديمة، أوجه الناس غريبة تنظر إلينا دون أن تطرف عينها، وكأننا نبدو بوضوح أنّنا غرباء عن المكان.. وعلى جانب الشارع القديم فتاة صغيرة، ربَّما في الخامسة عشر من عمرها تُدخّن السيجارة وترتدي تنورةً قصيرةً وكأنَّها تنتظر أحدًا ما.

دخلنا حارةً ضيّقةً في حارة أضيق مزدحمة بالمتسوّلين ودخان غريب له رائحة عطريّة مميزة، يبدو أنّ صديقي قد اصطحبني إلى أسوأ الحانات في مراكش، التي ربَّما لا توجد على الخريطة.

ألم نصل بعد؟ سألته وأنا أنظر إلى ساعتي فقد مرّ أكثر من ساعة في الطريق.

لا تستعجل يا صديقي أعدك بليلةٍ لن تنساها، انسَ أمر الساعة تمامًا.. أجابني.

دخلنا شارعًا مظلمًا يتخلّله صخب موسيقى كإحدى حفلات الروك فترة الثمانينيات.. دخلنا من بوابة صغيرة بعد أن تأكّد الحارس من أعمارنا، ولا أدري كيف شكّ بنا في الأساس، لكن ربَّما هو يرى عمله بضمير مبالغ به.

المكان كان صاخبًا كثيرًا.. الأضواء خافتةٌ حمراء والناس بالداخل كلّ في عالمه الخاص بدا عليهم السكر، كلّ هارب من عالمه إلى عالم مُزيف تملأه ضحكات مفتعلة.. وجوه تغطيها مساحيق التجميل لتخفي علامات العمر، أو ربَّما لتخفي ندبات الحزن.. كلّ يبحث عن سعادة وقتيّة لتمنحه بعض الصبر.. بعض القدرة على قبول وضع مرفوض أو بعض الطاقة لمطاردة حلم ابتعد إلى أقصى الأرض.

جلست مع صديقي على إحدى الطاولات القريبة من البار، وكانت تلك هي المرّة الأولى التي أراها فيها، عندما نظرت إلى البار وجدتها هناك تخدم إحدى الزبائن.. كانت ترتدي بلوزة حمراء قصيرة مفتوحة تكشف عن صدرها وبطنها.. شعرها مرفوع إلى الأعلى فيظهر جمال وجهها أكثر.. عينان واسعتان

مكحلتـان وأحمـر شـفاه ذو لـون صاخـب.. لا بُـدَّ أنَّهـا رأتنـي أنظر إليها، نظرت في اتّجاهي وابتسمت ابتسامةً ناعمةً.

لم أعرف أنّ لك ذوقًا جيّدًا في النساء! قال صديقي.

لا تظـنّ شـيئًا لقـد لفتـت انتباهـي فقـط؛ لأنَّهـا صغيـرة وجميلـة كنت أتساءل ما سرّ اضطرارها للعمل هكذا؟ أجبته

كلّهـن جميـلات صديقـي.. العاهـرة والراهبـة.. لا أحـد يختـار طريقه.

بعد قليـل اقتربـت الفتاة إلـى طاولتنـا ونظرت إلـيّ وكأنَّهـا تقصد أن تتجاهـل صديقـي، مالـت قريبًـا منّـي حتّـى شـعرت بأنفاسـها وقالت:

فاطيما في خدمتك سيّدي!

ارتبكـت كثيـرًا ونظـرت إلـى صديقـي، وكأنّـي أطلـب منـه أن ينقذني.

ضحك ونظر إليها وقال:

اختاري لنا مشروبًا جريئًا مثلك ربَّما يفكّ عقدة لسانِه.

نظـرت إليّه فـي غضب، فقد شـعرت بإحـراج شـديدٍ، ويبـدو أنّها لاحظت ذلك فقد أومأت برأسها وابتسمت، ثُمَّ مضت.

ما هذا لماذا قلتَ ذلك؟ لقد أحرجتني.

لـم أعـرف أنّـكَ سـاذجٌ هكـذا شـادي، مـا عمـرك أخـي عشـرة أعوام.. قالها وهو يضحك.

هذا خطئي أنّي وافقتك على هذا المكان الموبوء.

موبوء! مـا بك شـادي ألا تسـتطيع أن تمـرح قليـلاً.. أراهـن أنّكَ لم تقبّل فتاةً من قبل فقد أحمر وجهك من مجرد قربها منك.

أنتَ محقٌّ.. لم أفعل! أجبته.

إذن هـذه فرصـة جيّـدة.. الفتـاة جذّابـةٌ ومثيـرةٌ وسـوف تُحطّـم عذريتـك إلـى أشـلاء، ولـو مـا رأيـتُ إعجابها بـك مـا كنـت تركتها اليوم إلا وهي على سريري.

لا.. لا أريد هنيئًا لك الفتاة.

أخبرتـك أنّهـا معجبة بـك ثُمَّ أنّنـا هنا لتُجـرّب شـيئًا جديـدًا.. هيّا صديقـي تجـرأ قليـلاً يُمكنـك طلـب رقمهـا أضمـن لـك الحصـول عليه.

كنتُ مُتـردّدًا كثيـرًا رغم فضولـي لمعرفـة فاطيما عن قـرب، لكن لم يكـن هدفـي مثـل صديقـي، فـكان هنـاك شـيءٌ بهـا يُثيـر فضولي أكثر ما يثير جسدي.

اقتربـت فاطيمـا بالمشـروب ولم تـدع مجـالاً للتفكير فـي الأمر، تركت لي ورقةً صغيرةً تحت كأسي:

تبـدو متعبًا.. مـا رأيك فـي بعـض التدليك لتسـترخي؟ سـأنتظرك خارج الحانة بعد انتهاء دوامي.

نظر إليّ صديقي وابتسم حين أخبرته بمحتوى الورقة وقال:

أرأيـت لـن تكـون الأمـور أسـهل مـن ذلـك! فقـط اسـتمتع وخذ احتياطك ثُمّ غمز لي.

مشـروب تلـو الآخـر لا أذكـر عـدد الكـؤوس التـي أعدّدتهـا فاطيمـا، وكأنَّهـا أرادت أن تحجـب عقلـي تمامًـا حتّـى لا أُعيـد التفكير في الأمر.

كانـت السـاعة اقتربت مـن الثانيـة صباحًـا.. شـعرت بثقلٍ شـديدٍ في رأسي.

هيّـا بنـا! أشـعر أنّي لسـت بخيـر.. هـل تسـتطيع أنت أن تسـوق؟ سألت صديقي.

أيّ سـواقة! هل نسـيت؟ فاطيما فـي انتظارك يـا محظـوظ.. قالها صديقي وهو لا يبدو عليه أيّ أثر للسكر وكأنّ رأسه مُصفّح.

لقـد نسـيت فعـلًا.. إذن هيّـا بنـا أريـد أن أعـودَ للمنـزل قبـل استيقاظ أمّي الفجر.

فـي طريقنا للخـارج كانـت فاطيمـا تنتظرنـي عنـد ناصية الشـارع ترتـدي سـترةً سـوداء طويلـةً، حتّـى ظننتهـا فـي البدايـة أحـد المخبريّيـن السـريّين، خاصـةً أنّ رأسـي كان لا يسـتطيع تمييـز أيّ شيء تلك الليلة.

رحل صديقي وأنا لا أدري كيف سيصلُ بيته من هذا المستنقع؟!

فتحت باب السيارة، وركبت بجواري، شعرت بعطرها النفّاذ قد أفاقني قليلًا من سُكري.

أهلًا فاطيما! إلى أين نذهب؟ سألتها.

مكان قريب من هنا.. إلى شقتي.

***

لم يكن هناك أيّ حوار أثناء رحلتنا سوى سؤالها عن اسمي، وكنت أحاول التركيز في الطريق بصعوبة حتّى أنّي نسيت وجودها بجواري.

بعد السير بالسيارة لربع ساعة في شوارع ضيّقة لا تختلف كثيرًا عمَّا كنا فيه أنا وصديقي وصلنا إلى منزلها.. كانت شقتها صغيرةً للغاية، حتّى أنّي رأيت غرفة نومها فور دخولي، لها رائحة كأحد أنواع البخور الهنديّة الغريبة، بورتريهات لأناس لم أسمع عنهم من قبل، بعض أوراق التاروت على الطاولة، وكتب كثيرة في مكتبة مُعلّقة أغلبها عمَّا وراء الطبيعة والغيبيات!

هل تقرأين أوراق التاروت؟ تبدين مُهتمّةً كثيرًا بالعالم الآخر! سألتها.

العالم الذي نعيشه واضح كالشمس، نحن بحاجة إلى كُتب عمَّا لا نعرفه.

هل تسمح لي بتغيير ملابسي؟

بالطبع تفضلي.

انتظرت قليلاً حتّى ظهرت بقميص نوم أسود طويل كاشف لكتفها وصدرها، وقد مسحت عن وجهها بعض مساحيق التجميل فبدت أصغرَ وأجملَ وأكثر غموضًا.

اقتربت منّي وجلست بجواري نظرت طويلاً إليّ كانت عيناها قوية، صارخة، جريئة تبعث التوتر في قلب أيّ رجل.

تحدّثنا كثيرًا عني وعن دراستي، وتفاجأت حين أخبرتني أنّها قد أنهت دراستها في الجامعة منذ خمسة أعوام!

هل تسمحين لي بسؤال؟ ما الذي يجعل امرأة جميلةً ومتعلّمةً مثلك أن تعمل فتاة بار؟

هل تُؤمن بتلك الخطب الساذجة عن كيف يختار الإنسان طريقه؟ وأنّ الأحلام رهن إشارتنا وكأنّنا نملك عصا سحريّة قادرة على فعل المستحيل؟ نحن مجرد دُمى.. شادي هُنالك قوّة أعظم تُحرّكنا، نحن لا نختار أقدارنا، بل هي مَن تختارنا!

أنا أؤمن بأنّ الإنسان يمتلك إرادة حرّةً، لا يمكن أن نُلقي أخطاءنا وسوء اختيارنا على الأقدار، إن كانت الأمور هكذا فالسارق والقاتل والزاني وكلّ مرتكب خطيئة هو ليس سوى مُجرّد ضحية القدر!

إن كنا نمتلك إرادة حرّة يا شادي، إذن فلماذا هناك لاجئون ضحايا حروب، لا ذنب لهم فيها سوى أنّهم وُلدوا في ذاك الوطن! لماذا هناك يتامى وأطفال شوارع لا يجدون قوت يومهم؟ إن كانت الناس تختار أقدارها فلماذا إذن فقد البعض أعضاءهم والبعض ينعم في ملذّات الحياة وقصورها؟

أنتِ تخلطين الأمور فاطيما، أنا مؤمن بالأقدار ولكنّي أيضًا مؤمنٌ بأنّ هناك توازنًا بين الأبيض والأسود على الأرض، هناك حكمة في توزيع الأرزاق والأدوار لا يعلمها إلا الله.. لا بُدَّ من أنّك قد مررتِ بظروف عصيبة شتّت تفكيرك.

أنت مُحقّ! هل تظن أنّ هذه هي الحياة التي تمنيتها يومًا عندما كنت فتاةً في الجامعة، كانت أحلامي بسيطةً مثل أيّ فتاة كنت أحلم بفارس الأحلام بقصة الحبّ الخياليّة بالبيت والأسرة والأطفال، حتّى تزوّجت منه، فلم يبقَ من الحلم سوى الرماد الذي تراه.

آسف فاطيما.. يُمكننا تغيير الموضوع إذا كان يزعجكِ الحديث به.

لا بأس! فقد تجاوزت الأمر.. الجراح لا تنزف إلى الأبد.

لكن أحيانًا الحديث عن الذكريات قد يفتح أبواب الألم من جديد.

هنـاك مرحلـة مـن الألـم لا نشـعر بعدها بشـيء.. لـكلّ منا سـعة تحمل حين تمتلئ، فلا وجع بعدها قادر أن يصل إليك.

نظـرت إليهـا بتعاطـف بالرغـم مـن أنّ كلماتهـا كانـت صلبـةً، وتوحي بشخصية قويّة لم يعد لديها ما تفقده.

كيـف امتـلأت سـعة تحمّلـك فـي مثـل هـذا العمـر الصغيـر؟ سألتها في فضول.

بعـض اللحظـات فـي العمـر قـد تغيّـر مـن مسـار حياتـك، وكان لقائـي به من تلـك اللحظـات.. كنـت فـي العام الأخيـر من الدراسـة التقينـا صدفـة فـي إحـدى الحفـلات لصديقـة لـي.. اقتـرب منّـي وتعارفنـا.. كان رجـلاً ذكيًّـا يعـرف كيـف يعـزف علـى أوتـار قلـب الأنثـى بكلماتـه السـاحرة.. باهتمامـه وبروحـه المرحـة.. أحببته كما لـم أحـبّ يومًـا وبعـد شـهور قليلـة تزوّجنـا، وكنـت سـعيدةً للغايـة أحلـم كلّ يـوم بـأن أحمل طفلـه بداخلـي.. إحسـاس الأمومـة كانت رغبةً ملحـةً مثل هاجـس يُطاردنـي منذ كنـت صغيرة، فأحمـل دميتي معي فـي كلّ مـكان أطعمهـا وأحممهـا وأعتني بهـا.. بعد شـهور من الـزواج بـدأ يتغيـر كثيـرًا يسـهر خـارج المنـزل حتّـى الصبـاح ويعود ثمـلاً يطلـب مضاجعتـي.. تغيّـب كثيـرًا عـن عملـه بسـبب سـهراته التـي أصبحـت شـبه يوميّـة حتّـى رُفض مـن العمـل، وأصبـح مزاجه حـادًا أكثـر، خاصـةً أنّـه لـم يكـن معـه أيّ نقـود للسـهر وأنا لـم أكن أعمـل وقتهـا.. بـاع كلّ مجوهراتـي، وحيـن كنـت أعتـرض كان يضربني بعنفٍ شديدٍ حتّى أفقد الوعي.

كنت عاجزة عن كلّ شيء، وكنت أعلم بأنّ الأمر لن يستمر طويلاً وأنه لا بُدَّ من تدخّل القدر لإنهاء الوضع بطريقة أو بأخرى.. حتّى تلك الليلة حين دخل المنزل مع صديق له كنت أوّل مرّة أراه.. له شكل غريب كأحد قُطّاع الطرق، وكان كلاهما ثملاً حتّى النخاع.. دخلت الغرفة وتظاهرت أنّي نائمة حتّى لا يراني.. ولكنّه بعد قليل وبعد أصوات ضحك كثيرة سمعته يتحدّث مع صديقه بصوت عالٍ:

ألف درهم كما اتّفقنا في الخارج.

ألف درهم! هل أنت مجنون أنا لا أدفع ذلك المبلغ حتّى لو كانت عذراء.

سوف تدفع أكثر بعد أن تراها.. جاءني صوت زوجي وأنا لا أصدق ما أسمع.

أسرعت نحو باب الغرفة أغلقه بالمفتاح، ولكنّهما قد سمعا حركتي.. أسرع زوجي نحو الباب، وكان وجهه يملأه الشرّ، شعرت وكأنَّه شخص آخر لا أعرفه.. جذبني من شعري نحو السرير وصرخ في أذني:

عاهرتي الجميلة.. استمتعي دون صوت!

كان صديقه خلفه ينظر إليّ برغبة مُقزّزة ورائحة الخمر تفوح منهما، تركنا زوجي أنا وصديقه في الغرفة وحدنا وأغلق الباب

من الخـارج، ولا أعـرف إن كان تـرك المنـزل وقتهـا أم كان بالخارج يستمتع بصرخاتي، باغتصاب زوجته التي تحمل اسمه.

اقتـرب منّـي صديقـه.. حاولـت أن أصـرخ فضربنـي بعنـفٍ على وجهـي.. فتـح خزانـة الملابـس وأحضـر رابطـة عنـق زوجـي حتّـى ظننت أنّـه سـوف يخنقنـي، ولكنّه قيّـد بها يـدي، ونزع عني ملابسـي وضاجعنـي بصـورة وحشـيّة، حتّـى أنّـي تمنّيـت المـوت ينقذني من بيـن يـده.. تركنـي ملقيـةً علـى الأرض فـي حالـة يُرثـي لهـا مـن الأسى.. كرهت جسدي كثيرًا ذلك اليوم وكرهت كلّ الرجال.

شـعرتُ بهـا ترتجـف، توقعتهـا تبكـي، ولكـنّ عينيها كانـت جافةً ربَّما قد بكت حتّى جفّت عيناها.

هل أنتِ بخير؟ سألتها.

أجـل.. أنـا بخيـرٍ أعتـذر لـكِ عـن ازعاجـك بقصتـي.. أجبتنـي بابتسامةٍ حزينةٍ.

إطلاقًا.. إذا كنتِ لا تفضلين تكملة الحديث فلا بأس.

لا عزيـزي بالعكـس، فهـذه أوّل مـرّة أحكـي عـن حياتـي.. ربَّمـا لأنّ أحدًا لم يهتم أن يسألني من قبل.

إذن كيـف انتهـت تلـك الليلـة وكيـف تحمّلتيـن هـذا الظلـم؟ سألتها.

تلك الليلة شـادي تحـوّل كلّ شـيء بداخلي..تحوّلـت أفكاري.. أحلامـي.. مبادئـي.. رؤيتـي للحيـاة.. فقـدت الثقـة فـي كلّ مَـن

حولي.. أما هو فقد رحل قبل رحيل صديقه، واختفى لمدّة أسبوعين لم أكن أعرف شيئًا عنه.

كنت في ذلك الوقت ألملم نفسي كنجمة سقطت من السماء فتناثرت في كلّ بقاع الأرض.

بعدها عاد إلى المنزل ليطلب نقودًا وكان في حالة مُزرية.. نظرت إليه وسألته:

أين زوجي؟ مَن أنت؟ نظر إلى بضعفٍ لم يُثر شفقتي بقدر ما أثار اشمئزازي.

أنا زوجك.. هل فقدتِ عقلك؟ هيّا أعطني نقودًا.. أجابني بلسان ثقيلٍ وكأنَّه يحتضر.

أجبته: عن أيّ نقود تتحدّث أنت تركتني دون درهم واحد، ولم يعد هناك شيء في المنزل ليباع.. أُغرب عن وجهي كفاك خرابًا لي ولحياتي.. أكرهك.

جذبني من رأسي ودفعني نحو الحائط ورحل.

بعدها اكتشفت الخبر الأسعد في الوقت الأتعس من حياتي، اكتشفت أنّي حامل.. عندما رأيت اختبار الحمل ضحكت كثيرًا ليس فرحًا بقدر السخرية.. وقتها اكتشفت أنّ الحلم أصبح وكأنَّه لعنة القيتها على نفسي يومًا ما فتحقّقت.

سكتت قليلًا حتّى سألتها:

هل أخبرتِه بأمر حملك؟

لـم أكـن أعـرف كيـف أصـل إليـه، ولـم أشـعر أنّ أمـر حملـي سـوف يُغيّر مـن حياتـه شـيئًا، فقـد اختـار طريقـه بالفعـل، لكـن بعد مُضي أكثـر من شـهر كنـت أعمـل كمُربّيّة بالسـاعة فـي أحـد البيوت حتّـى أوفّر قـوت يومي.. عُـدت إلـى المنـزل فوجدته فـي انتظاري.. صرخ في وجهي: أين كنتِ؟ كنتِ في سرير رجل آخر؟

لم أكـن أنـوي أن أخبـره بأمـر حملـي، ولم أكـن حتّـى أرغب في الردّ على سـؤاله، فهـو يعرف جيّـدًا أنّه يهـذي، ولكنّـه كان يحاول أن يثيـر أعصابي، ولكـنّ صمتي قـد اسـتفزّه حـاول أن يضربنـي فأوقفته بأنّـي حامـل، ولكـنّ اعترافـي قـد أثـار غضبـه أكثـر، وقـال: أيّتهـا العاهرة لـن تعرفـي أبدًا مَـن أب هـذا الطفـل، ولكنّي سـوف أريحك من تلك الحيرة.

ركلنـي فـي بطنـي بـكلّ قوّتـه مـرّة تلـو الأخـرى، حتّـى وجـدت نفسي مُستيقظة في المشفى، وقد فقدت الطفل.

يـا إلهـي! مسـكينة فاطيما..لقـد عانيـتِ كثيـرًا؟ لكـن لمـاذا لـم تلجـأي إلى أحـد مـن أهلـك أو أهلـه لمـاذا حملـتِ كلّ شـيء على عاتقك وحدك؟ سألتها.

أبي رجـل عجـوز متقاعـدٌ وأمّـي توفّـت وأنا في السـابعة عشـر.. لي أختٌ واحـدةٌ أكبـر منّـي مُتزوّجـة، ولهـا حياتهـا الخاصة لم أشـأ أن أقحمهـا فـي مشـاكلي، أم أهـل زوجـي فقـد تبـرؤا منـه بعـد طلبه المستمرّ للنقود وصرفها على السهر والخمور.

كيف انتهت الأمور معه إذن؟

عـاد بعـد فتـرة طويلـة كنـت قـد بـدأت العمـل فـي الحانـة، بعد محـاولات فاشـلة فـي البحث عـن عمـل وسـفر الأسـرة التـي كنت أرعـى صغيرهم وقـت عملهم.. عـاد منتهيًـا مريضًا ظـل يُعانـي كثيرًا ولا أسـتطيع أن أنكر أنّـي كنت أتلـذّذ بمُعاناتـه، وتمنيـت أن تطول به إلى الأبد.

سـاد صمـت بيننـا بضـع دقائـق.. سـكبت القليـل مـن النبيـذ في كأسـها، ولكنّـي رفضتُ أن تسـكبَ فـي كأسـي، فرأسـي كان لا يزال مُثقـلًا.. اسـتغربت كلماتهـا عـن تلذّذهـا بمعانـاة زوجهـا بالرغم من ظلمه لها، ولكنّي شعرت بحقد خفيٍّ بداخلها لم يهدأ بعد.

سـاد بعـض الصمـت بيننـا، نظـرت حولـي فوجـدت علـى الحائـط بجـواري لوحـةً غريبـةً.. حصـان أبيـض يركـب فوقـه هيـكل عظمـيّ يرتدي لباسًـا أسـود ودرعًا، ممسـكًا بعلم مرسـوم به رسـمة على شـكل زهـرة، وأمـام الحصان فتـاة تجثو علـى ركبتيهـا، وحول الحصـان جثث كثيرة لأنـاس فـي أعمـار مختلفـة.. والشـمس فـي الخلـف تغـرب بين برجين ورقم لاتينيّ فوق اللوحة ربَّما رقم خمسة.

غريبة تلك اللوحة! عمَّ تُعبّر؟ سألتها مُتأملًا تفاصيل اللوحة.

ضحكت ثُمَّ سألتني هل أخفتك؟

لا ليس خوفًا.. فقط فضول أجبتها بابتسامةٍ.

هذا هو كارت التاروت الخاص بالموت.

لا أفهم الكثير عن هذا المجال، لكن ماذا يعني هذا؟

الهيكل العظميّ هو رسول الموت، أما الدرع هو الجزء الذي لا يقهر في الإنسان حتّى بعد الموت، الحصان الأبيض هو لون النقاء، والحصان رمز للقوّة، العلم المُكوّن من خمس بتلات يعكس الجمال والخلود، والرقم الخامس هو رمز التغيير.

الرسالة من اللوحة هذه، أنّ الموت ليس نهايةً للحياة، بل هو انتقال لمرحلة جديدة أو تغيير للحياة التي اعتدت عليها.. هناك جمالٌ في الموت، الموت جزءٌ مُتأصلٌ في الحياة.

استغربت كلماتها كثيرًا، وجدت أسفل اللوحة طاولةً صغيرةً عليها الكثير من الشموع بمختلف الأحجام والألوان، اعتقدت في البداية أنَّها ربَّما لجلسات التدليك، ولكنّي وجدت بالجوار أشياءَ كثيرةً غريبةً مثل عيدان خشبيّة، بعض أكياس تحتوي على تراب مُلوّن، وحبر أسود، والكثير من أنواع البخور وعظام صغيرة كأنَّها عظامٌ لكائنات دقيقة لم أستطع تمييزها، نظرت إليها بدهشة شديدة ثُمَّ سألتها، ما كلّ هذا؟

نظرت لي وضحكت؛ هل تخشى السحر؟

أنا لا أؤمن بوجود السحر! لماذا تُهدرين وقتك في مثل تلك الخرافات، أنتِ فتاة مُتعلّمة كيف تؤمنين بهذا الهراء؟

السحر ليس هراء، السحر وسيلة لكشف غموض العوالم التي لا نراها!

ألا يمكن أن تؤذيك تلك الأشياء بطريقة ما؟

بالعكس! تلك الأشياء التي تسخر منها هي مصدر قوتي، هناك مَن يحميني بها، هناك خدم تسعى لراحتي.

شعرت أنّها لو تودّ أن تدخل معي في جدل حول الأمر.

دعكِ من كلّ هذا الآن.. هيَّا لقد وعدتكَ بتدليك ليساعدك على الاسترخاء.

دخلت غرفتها كانت مُظلمةً يتخلّلها ضوء الشموع حول السرير ورائحة زيت عطري، ربَّما لافندر.

طلبت منّي خلع ملابسي وأن استلقي على السرير حتّى تبدأ جلسة التدليك، وشغّلت بعض الموسيقى الكلاسيكيّة الهادئة، كان الجوّ مثاليًّا للنوم أو للاسترخاء كما أرادت، اقتربت منّي ووضعت بعض الزيت الدافئ على ظهري، ثُمّ شعرت بيدها ناعمة ورقيقة تُدلّك جسدي، وكأنَّها تقوم بأحد طقوس طرد الأرواح الشريرة، وقد نجحت أن تريح أعصابي كثيرًا فقد صار عقلي فارغًا تمامًا!

بدأت أشعر ببعض الإثارة حين جلست بجسدها فوق ظهري، واقتربت من رأسي وقبّلتني في عنقي، حتّى شعرت بأنفاسها، برائحة شعرها، بتفاصيل جسدها ودون أيّ مُحاولة منّي للمقاومة،

استسلمت تمامًا لإغرائها، وسبحت معها في عالم جديدٍ لم أذقه من قبل، وقد صدق صديقي حين توقّع أن تُحطّمَ عذريتي، فقد أحاطتني بنشوتها، وشعرت معها برجولتي للمرّة الأولى، ولكنّ الأمر كان أشبه بالجُرعة الأولى، لم أكن أدري أن أولى جُرعات الإدمان تكون عند تلاقي الأجساد، وأنه لن يكون أبدًا لقاءنا الأوّل والأخير!

نمت تلك الليلة في سريرها نومًا عميقًا حتّى استيقظت.

أولى ساعات النهار، انظر حولي في دهشة، فقد انتظرت بضعة دقائق حتّى تذكّرت أين أنا وما حدث.. كانت ترقد بجواري في سلام وكان وجهها أكثر براءةً أثناء نومها كطفلٍ صغيرٍ لم تُلطّخ الحياةُ بعد قلبه النقي.

ركضت أرتدي ثيابي حين تذكرت أمّي وقلقها على غيابي.. تركت لفاطيما رسالة قصيرة أشكرها وبها رقم هاتفي.. كانت الشوارع في النهار أكثر كآبة، فكلّ ما نجح الليل في إخفائه ظهر قبحه تحت أشعة الشمس القاسيّة.

عدتُ إلى البيت، فرأيت أمّي تنتظرني على الأريكة، وكان يبدو عليها القلق وقلّة النوم، اعتذرت لها من غيابي الليلة الماضيّة وسامحتني فورًا فهي لم تشكّ في أمري أبدًا.

استحممت وبدّلت ملابسي، وركضت إلى الجامعة، وأنا أُفكّر متّى سأرى فاطيما مُجدّدًا؟

***

مضت آخر سنة في الجامعة سريعًا.. كانت زياراتي الأسبوعيّة لفاطيما بمثابة مُسكّنٍ قويٍّ لأيّ مشاعر سلبيّة.. كنت أنزع كلّ شيء بداخلي على عتبة بابها.. حزني.. مخاوفي وحتّى ملابسي.. كنت أشعر معها بالدفء، وكنت أشعر بتعلّقها بي يزداد في كلّ مرّة.

كانت امرأة قويّة بالرغم من صعوبة حياتها.. كنت أشعر بأنّ هناك غلافًا خارجيًّا من الأشواك حولها، حتّى لا يستطيع أحد إيذاءها.. كُنت أشعر أنّ بداخلها نزعةَ انتقام من أيّ رجل يحاول أن يجرحها.. وكنت أشكّ كثيرًا في نهاية زوجها التي لم تخبرني عنها أبدًا.

علاقتي بفاطيما كانت مُبهمة.. لم أعرف إن كنت أحببتها أم لا؟ فقد كانت تمنحني الكثير من السلام في كلّ مرّة أكون بين ذراعيها.. كان لها سحر خاص حتّى في أبسط الأشياء، ولكنّ الخوف ظلّ حاجزًا داخليًّا ألّا أستسلم لحبّها.. الخوف من المستقبل، من أمّي وأبي إذا علموا بعلاقاتي بها، الخوف من طبيعة حياتها.. كنت أنسى كلّ ذلك معها، لكن بمجرد عودتي إلى المنزل كنت أمنع نفسي بقوّة ألّا أفكّر فيها.

كم كنت أنانيًّا؟ فقد أخذت منها الكثير دون أن أمنحها شيئًا.. لم أخبرها يومًا أنّي أحبّها.. لم أكن أثق بمشاعري أو بها، ولكنّي لم يكن عندي شكّ أنّها أحبّتني بصدقٍ.

بعد التخرّج بعدّة أشهر تلقيت اتّصالًا من أبي غيّر لي مسار حياتي:

أهلًا شادي.. كيف حالك يا بُني؟ أفتقدك كثيرًا.

بخير يا أبي.. كيف حال زوجتك الجديدة؟ سألته.

ساد بعض الصمت قليلًا حتّى أجابني:

اسمع شادي، أنا لم اتّصل بك من أجل ذلك الأمر، هناك أمرٌ مهمٌّ بخصوص مستقبلك.. لقد وفّرت لك فرصةً مُمتازةً للعمل في سفارة المغرب بالقاهرة.

القاهرة! ولكنّك تعلم يا أبي أنّي لا أريد أن أترك المغرب.. كيف سأترك أمّي وحدها لم يبقَ لها سواي من سيعتني بها في غيابي؟

يا بُني! لا بُدَّ أن تُفكّر بشكلٍ عمليٍّ.. هل تعلم كم شاب يحلم بتلك الفرصة؟ كما أنّ أخاك سوف يعود بعد انتهاء دراسته.. تمهّل في قرارك ولا تستعجل الرفض.

أخي يا أبي لن يعود، وأنت تعلم ذلك، فقد كان يبحث عن أيّ مخرج من المغرب، ولن يعودَ بقدميه إليها.. ألم ترَ كيف ينتقد كلّ شيء أثناء إجازاته السنويّة؟ فهو يعد الأيّام في كلّ مرّة حتّى يعود إلى غربته.

أيّا كان يا ولدي.. أنتَ لست صغيرًا، وسوف يكون لك حياتك الخاصة يومًا، لن تظلّ تلتصق بأمك هكذا كالطفل.. فكّر في مستقبلك.

أغلقت المكالمة مع والدي، وأنا بائس وغاضب، فهو الآن يُفكّر بطريقة عمليّة، لكن حين كان الأمر يخص مشاعره الخاصة ضرب كلّ شيء عُرض الحائط، وسمع فقط صوت قلبه.

ازدادت زياراتي لفاطيما بعد التخرّج، فلم يكن لدي أيّ مخرج لمواساتي سواها.. كنا نسهر في شقتها على أضواء الشموع مع كؤوس النبيذ الأحمر والموسيقى الهادئة.. كان كلّ شيء رائعًا لساعات لقائنا فقط، حتّى ذلك اليوم حين أخبرتها بمكالمة والدي، فرأيت منها ما لم أره من قبل.

ثارت فاطيما ثورةً عارمةً.. اتّسعت عيناها وصرخت في وجهي:

هل تُفكّر حقًّا في السفر؟ كيف لكَ أن تتركني؟

استفزتني كثيرًا عصبيتها المفاجأة، ودون أن أشعر صرخت أنا الآخر.

فاطيما! أنا لم أقرّر بعد، لكن ليس من حقّك أو من حقّ أيّ أحد أن يُجبرني على شيء.

انهارت فاطيما في البكاء ترجوني ألَّا أتركها، وقد أثار فزعي ضعفها أكثر من قوّتها، غادرت منزلها تلك الليلة، وأنا أشعر أنّ العالم من حولي ضدي.. كلّ شيء أصبح بلا معنى؛ عندما عدت إلى المنزل كانت أمّي في انتظاري، لكن تلك المرّة كان أسلوبُها مختلفًا تمامًا.

أين كنت؟ سألتني بلهجةٍ غاضبةٍ.

قلت في نفسي (المصائب لا تأتي فرادى)

لقد أخبرتكِ يا أمّي لقد كنتُ مع صديقي.

أنت تكذب شادي.. أنت لم تكن مع صديقك لا اليوم ولا كلّ الأيّام التي كنت تسهر بها حتّى الفجر.. فأخبرني بالحقيقة لم أعتد منك الكذب يا بُني.. بدأ صوتُها يتخلّله الضعف، وقبل أن تبكي أخبرتها بكلّ شيء عن فاطيما وعن مكالمة والدي.

لم أتوقّع ردّة فعلها فقد عانقتني وبكت كثيرًا:

شادي أنا أحبّك يا ابني أكثر من أيّ شيء في هذا العالم، وأنا لستُ غاضبة منك، لكن أرجوك اقطع علاقاتك بتلك العاهرة، فقد تؤذيك أو تهدم مستقبلك.. لا تجعل طيش الشباب ندبةً في مستقبلك، ما زلت صغيرًا ولا تعرف الكثير عن الحياة.. أما بخصوص سفرك إلى مصر فأنا أُرحّب تمامًا به رغم أنّي سوف أفتقدك كثيرًا، لكن تلك فرصة لا تعوّض كما قال أبوك، كما أنّها سوف تُسهّل أمور عملك في المغرب هنا بعد ذلك.. والسفر إلى مصر ليس بصعب سوف أقومُ بزيارتك هناك ولن تشعرَ بالغربة في بلد عربي، ثقافته قريبة من ثقافتنا.

للحظة تفاجأت من كلام أمّي، ولعلّ حكاية فاطيما هي ما جعلتها تُرحّب بفكرة السفر، ربَّما لتُبعدني عنها رغم أنّي لم أخبرها بحقيقة مشاعري تجاهها والتي نفسي أجهلها.

فكّرت في كلمات فاطيما كثيرًا.. هل حقًّا نختار حياتنا.. هل تلك الفرص اختيارات حقيقيّة تحتمل القبول أو الرفض؟ أم أنّها أقدار لا بُدَّ من طاعتها طاعة عمياء؟.. صار الوضع الآن أصعبَ، لم يعد باب فاطيما مفتوحًا على مصراعيه كما كان من قبل.. بعد أن اعتادت أن تُعطي بلا مقابل صارت تلتمس منّي الإحساس بالأمان.. صارت تنظر لي كمنقذ لديه القدرة على إصلاح ما حطّمته الأيّام بها، ولكنّي كنت أضعف من ذلك.. أضعف من المواجهة.. أضعف من إنقاذ نفسي أو ربَّما كانت أنانيتي تُرضيني بتلك الساعات القليلة التي أمنحها فيها جسدًا بلا قلب.

ضاقت كلّ السبل في المغرب، وأصبحت الفرصة فرضًا لا بُدَّ من تأديته.. أعدّدت نفسي للرحيل إلى مصر تاركًا كلّ شيء خلفي.. أمّي بحزنِها.. فاطيما بمتطلباتها.. أبي بحياته التي اختارها، وأخي الذي صرت أشكّ في رؤيته مُجدّدًا.. كان كلّ شيء يدفعني للبدء من جديدٍ بعيدًا عن هذا العالم الذي سئمته.

شعرت برغبة شديدةٍ أن أودّع فاطيما بالرغم من كلّ شيء.. لا بُدَّ من وضع نقطة عند انتهاء السطر، فالكلمات المتداخلة تفقد المعنى.

كانت ليلةً هادئةً من ليالي الشتاء شديدة البرودة.. اتّجهت نحو منزلها للمرّة الأخيرة، وأنا لا أدري أيّ كلمات يُمكنها إسعافي أو إسعاف قلبها.. ماذا يقال في الوداع؟ شكرًا ولكنّي لم

أستطع أن أحبّك أم ربَّما أحببتك، ولكنّي لست مستعدًّا لحرب من أجلك، أم وداعًا فأنت خارج حياتي بعد كلّ شيء منحتني إيّاه؟

اللعنة! كيف ليس هناك من طريقة للفراق دون ألم؟ كيف تصبح كلّ الكلمات بلا جدوى بمجرد إضافة كلمة وداعًا لها؟

فتحت لي الباب، وقد بدا عليها الإعياء الشديد، وكانت رائحة البخور تلك المرّة خانقةً، وكأنّ شيئًا بالداخل يحترق.. دعتني للدخول دون كلمة لومٍ واحدةٍ عن غيابي الفترة الماضيّة.

أنتِ بخير؟ سألتها.

منذ متى يسأل الجلادُ إن كان المتهم بخير؟

كانت عيناها قاسيةً، تحمل الكثير من الغضب.

أنا لستُ جلادًا فاطيما، وأنتِ لستِ بمتهم.. لا تدعي الأمور تتفاقم معكِ، كلّ ما في الأمر بأنّ هناك فرصةً عمل، وأنا بحاجة إليها.

اقتربت منّي ونظرت لي نظرةً عميقةً حتّى شعرت برعشة في جسدي، ثُمَّ قالت بصوتٍ محمومٍ:

أنت رجل.. إذن أنت كاذب.. أعدك أنّك سوف تندم كثيرًا.

بدأت أشعر بسخافة الموقف، وقرّرت الرحيل فسمعت صرخةً قويّةً ويدها تشدّني من كتفي، نظرت إليها وفزعت كثيرًا،

فكان وجهُها يزداد إعياءً وعيناها تزداد غضبًا، أمسكت بي بقوّة من قميصي، واقتربت منّي وصرخت بكلمات غامضةً لم أفهم منها شيئًا ثُمَّ بدأت أفسّر حين قالت:

رحيلك من المغرب يعني موتك حيّ.. لن تجد الراحة بين العوالم التي لا تدري عنها شيئًا، سوف تتعذّب روحك كثيرًا حتّى تجد ما تحبّ أمامك وتعجز عن لمسه.. كلّ ما في قلبي من أسى لك!

ثُمَّ دفعتني بعيدًا بقوّة حتّى وجدت نفسي على الأرض أمام باب الشقة.. ركضت للخارج وأنا في حالة هلع، شعرت أنّها قد فقدت عقلها ويمكنها فعل أيّ شيء مجنونٍ.. شعرت بأنّي مسؤول عن تلك الحالة التي لم أرها بها من قبل، حتّى أنّي كرهت نفسي كثيرًا وقتها.

***

استمرّت دائرة الوداع الموجعة في الاتّساع.. الساعة السادسة صباحًا في مطار مراكش صوت النداء الآلي يعلن الباقي من الزمن على انطلاق الطائرة المُتّجهة إلى القاهرة.

بعد مُحاولات فاشلة من أمّي لتبدو سعيدةً أو ثابتةً على الأقل، أجهشت في البكاء عندما حان الوقت، وجود أبي لا شك قد زاد من وجعها ومن وجعي حين رأيتهما لأوّل مرّة سويًا كالغرباء.

كلّ منهما يتحاشى النظر في عين الآخر! كم غريبة تلك الحياة حين ترجعنا للحظات الأولى دون أن تمنحنا رحمة النسيان!

ودعتهما وودّعت المغرب وودّعت نفسي القديمة، واستسلمت للتيار يحملني في اتّجاه الموج دون أيّ مقاومة منّي للنجاة.

أتذكّر تلك اللحظة الأولى، عندما تستنشق هواءَ بلد جديد، بلد آخر غير هواء وطنك الذي اعتدته منذ أن بدأت التنفس.. منذ صرختك الأولى.. كأنَّك تُولد من جديد، لكن تلك المرّة لا تقوى على الصراخ فقط، تحاول التنفّس، وكأنَّك تحاول التنفّس تحت الماء ملتمسًا البقاء.

استلمت العمل في السفارة، وصارت الأمور بشكل جيّد، ربَّما لأنّي لم أضع أيّ توقعات لا بالسلب ولا بالإيجاب.

مضت أيّام من الهدوء، ثُمَّ شهور أقرب إلى سنوات، كنت أشعر في كلّ يوم أنّي إنسان آخر.. إنسان لا أعرف عنه شيئًا.. أعيش حياته، ألعب دوره بجدارةٍ، أتشكّل معه كصلصالٍ قادرٍ على التحوّل لأيّ شكل تتطلبه الحياة.

سافرت كثيرًا في رحلات عمل، لم تعد المطارات بنفس الرهبة الأولى، فعندما نواجه مخاوفنا، فإنّنا نعلن الانتصار عليها بلا شك.

كنت أشعر كثيرًا أنّي مريض، ولكنّي كنت أرجع ذلك دائمًا لمرض الحنين إلى الوطن، والذي تتفاقم أعراضه في المساء، خاصةً في ليالي الشتاء.

كنت أُسافر إلى الإسكندرية بعض الأيّام بالقطار حتّى استأجرت شقّةً صغيرةً بالقرب من ستانلي، بدأت صحتي في التدهور كثيرًا دون سبب واضح.. إرهاق شديد، ألم في ظهري مستمرٌّ، نوم لساعات طويلة حتّى أنّي بدأت أتغيّب كثيرًا عن العمل.

لا أحد من الأطباء الذين قمت بزيارتهم أخبرني بسببٍ مقنع، البعض فسّره على أنّه اكتئاب، والبعض الآخر فسّره على أنّه إجهاد يحتاج إلى راحة ليس أكثر.

صار الوضع يزداد سوءًا مع مرور الوقت، حتّى ذلك اليوم عندما كنت في شقتي في الإسكندرية، كنت قد وصلت إلى مرحلة من الإجهاد، لم أقوَ بها على الحركة، عضلات جسدي كانت مُتشنّجة بشكلٍ غريبٍ، ميل للقيء ودوّار في رأسي،

ملأت حوض الاستحمام بماءٍ ساخنٍ على أمل أن أشعر ببعض التحسّن وتسترخي عضلاتي.

بعد قليل شعرتُ بالبخار يملأ الحمام لدرجة أنّي لم أعد أرى أصابع يدي أمامي، حاولت الحركة فلم أستطع، كنت في حالة شلل تامٍ، بدأت أسمع أصواتًا غريبة، أصواتَ صرخات وصوتًا

قريبًا من صوت فاطيما.. ظلّ البخار يتصاعدُ حتّى شعرت باختناق شديدٍ لم أستطع التنفس.

صوت الصرخات يتصاعدُ مِن حولي، حاولت أن أضع يدي على أذني، فلم أستطع، لا أدري كم مرّ من الوقت حتّى فقدت الوعي؟ وفقدت الإحساس بكلّ شيء.

ولا أدري كم مرّ من الأيّام أو من الأعوام حتّى أدركت أنّي لم أعد أنتمي إلى هذا العالم، وأنّي لم أمت بعد!

***

أن ننتظر لا يعني أنّ لدينا فائضًا من الصبر، أحيانًا ننتظر لأنّه الشيء الوحيد المتاح بعد أن نكون استنزفنا كلّ أسلحتنا في معركة ما وفشلنا، فنعلن هزيمتنا ونرفع رايات الاستسلام، نعتنق الصبر ونلجأ للانتظار.

وكم من عمر أضاعه الانتظار؟

سمعتُ صوت رنين الهاتف، وكأنَّه قادم من عالم آخر، لا أدري كم الساعة الآن؟ ربَّما مرّت عدّة ساعات وأنا مُستلّقيّة على الأرض بين النوم واليقظة لا أقوى على الحركة.

ألو!

كيف حالك سارة؟ أنا أمينة من شؤون الطلبة، ودّدت أن أبلغك أن عدم حضورك الامتحانات سيضطرك لإعادة السنة إذا لم يكن لديكِ عذرٌ قويٌّ.

لديّ الكثير من الأعذار.. أجبتها.

إذن لا بُـدَّ أن تحضـري لتقديـم أعـذارك عزيزتـي يُؤسـفني أن أخبرك بأنّ وضعك سيئ.

أغلقـت الهاتـف دون إجابـة منّـي، لم أكـن أنتظـر تلـك المكالمة فـي هـذا التوقيـت.. فلسـتُ بحاجـة إلـى أمينـة كـي تُذكّرنـي بسـوء وضعي!

لـم أكـن أحتمـل تلـك الغرفـة فـكلّ شـيء بهـا أصبـح لـه رائحة الموت، غسلت وجهي وغادرت.

لا أدري إلـى أيـن أتّجـه؟ كيـف يمكـن أن يضيـق العالـم بوسـعه ليصبح لا يتعدى أربعة جدران؟

اتّجهـت إلـى المطعـم الـذي اعتـدت أن أقابـل شـادي بـه، كان عازف البيانـو يعزف فيـروز (بناديلـك يا حبيبي مـا بتسـمعلي ندا ولا التـلات القريبـة بترجعلـي الصـدا، كأنَّـك مـا حـدا.. ضايـع بهـا لمدى)!!

فكّـرت للحظـة، هـل يمكـن أن تكـون الحيـاة عوالـم متوازيـة؟ وكيـف تنتقل أرواحنـا عبر تلـك العوالـم؟ هل هنـاك قواعـد للعبة؟! وكيـف اسـتطاع شـادي أن يُكسّـر القوانيـن؟ أن ينتقل بيـن عالمين لا يلتقيان!!

جاءني صوت النادل ليقطع حبل أفكاري:

أهلا سيّدتي! منذ فترة لم نركِ

حقًّا! هل تذكر آخر مرّة؟ هل تذكر الشخص الذي كان بصحبتي دومًا؟ سألته.

آسف! لكنّي أذكر أنّك دومًا كنتِ وحدكِ.

ابتسمت له وأجبته في استسلام: بالطبع.. كنتُ وحدي.

جلست في المطعم حتّى غروب الشمس.. كنت أنتظر شادي رغم يقيني أنّه لن يأتي.. تلك المرّة كانت الحقيقة أقوى مِن تزيفها.. تلك المرّة خذلني خيالي وخذلتني أحلامي.. أعلنتُ استسلامي ورحلتُ.

اتّجهت نحو محطة القطار، أثناء السفر جلست بجواري سيّدة عجوز لوهلة ظننتها جدّتي، كانت تُشبهها تمامًا، ترتدي عباءة سوداء وكانت لها رائحة تشبه المسك.

بعد قليل نظرتْ إليّ وبدأت بالكلام:

تبدين حزينةً بُنيتي، هل أنتِ بخير؟

نظرتُ إلى عينيها كنت أرى طيبة جدّتي، صدّقيني لا أدري.

مدّت يدها وقالت: أعطني يدك صغيرتي لا تخافي.

أمسكت بيدي وأنا لا أفهم ما تفعل؟

نظرت في كفي ثُمَّ نظرت إليّ في حزن وقالت:

قلبك متُعب بُنيتي.

لـم أجبهـا، بـدأ يراودنـي شـكّ بأنهـا قـد تكـون أحـد النصّابيـن رغم أنّها لا تبدو كذلك.

أكملت حديثها:

روحـك تائهـة، كلّ أحبتـك فـي عالـم وأنـتِ فـي عالـم، أنـتِ لا تنتمين إلى هنا! ولكنّك ستجدين راحتك في النهاية.

سألتها: في أيّ عالم؟

ربتت على يدي ولم تجبني.

ثُمَّ ساد صمت بيننا حتّى وصلنا محطة القاهرة.

***

أن تُؤجّـل الحيـاة أحلامـك إلـى أجـل غيـر مُسـمّى ربَّمـا أشـد قسـوةً مـن ألَّا تمتلـك أحلامًـا! الأحـلام المؤجّلـة تُطاردنـا كأشـباح في منتصـف الليـل تطلب التحـرّر، تُوقّظنـا من غفلتنـا كلّ ليلـة، تدقّ ناقـوس التذكـرة، هـا هو يـوم قد مضـى، ومـا زلنـا مُقيّدين بسلاسـل القدر!

اقتل أحلامك قبل أن تقتلك.

عـدت إلـى بيـت جدّتـي، كانـت الخالـة سـعاد قـد عـادت إلـى شقّتها.

كم صـار المنـزل فارغًـا؟! تمامًـا كعقلي.. عقـل أحاطـه الضباب من كلّ الاتّجاهات حتّى حجب الرؤية فلم يعد يقرأ محتواه.

دخلت غرفتي، كـم أفتقـده الآن؟ تمامًـا كفقداني الأمل بـأن أراه! تُـرى مـاذا يـدور حولـه الآن؟ تُـرى فيـمَّ يُفكّـر؟ بـمَّ يشـعر؟ هـل يفتقدني أيضًا؟

نظرت طويـلًا إلى شـجرة الأحـلام! نزعـت أوراقها وكأنّـي أنتزع جـزءًا منّي مـع كلّ ورقـة، لا.. لن أصيـر تحـت رحمتهـا الآن، أنا من صنعتها وأنا من سأمزّقها قبل أن تُمزّقني!

فتحت أوراقها قبل أن أمزّقها؛

1) كنْ خيالًا في قبح الواقع.

2) جدّتي سعيدة بما تمنت.

3) أم تحتاج لي قبل أن أحتاج إليها.

4) كاتبة.

5) رجل مثالي في عالم لا يعترف بالمثالية.

توقّفت للحظة مندهشة!! لقد تحقّقت كلّ الأوراق بطريقة ما!

شـادي كان خيـالًا، وجدّتـي كانـت ترقـد مُبتسـمةً، الخالة سـعاد اعتبرتنـي ابنتها، وهـا هي الجامعـة اتّصلـت تُحذّرني، وكريـم الرجل المثالي الذي لم أتمنَ أبدًا أن يكون هو!

لكن هل تمنّت جدّتي الموت؟

هل اعتبرت الخالة سعاد أمّي؟

هل تمنيت أن أترك الدراسة لأكتب؟

كيف يمكن للحياة أن تخدعنا بصورٍ مُزيّفةٍ من أحلامنا؟

كلّ ما حدث كتبته.. ولا شيء مما تحقّق تمنيته!

شعرت بالغضب أكثر، مزّقتها إلى أجزاء صغيرةٍ تظهر منها بعض الكلمات، وودّدت لو مزّقتها لحروف أصغر لا تعني شيئًا.

لكن كفى وقتًا ضائعًا من أجلها، يكفي ما سقته لها من سنين من عمري، حتّى تزدهر وتبقى على قيد الحياة.

أمسكت بالقلم أتحدّث به ومعه:

حلق بعيدًا في الفضاء

إن لم تسعك حدود الأرض

إن صار دورانها مملًا

يعيد نفس التفاصيل في صمت

حلّق بعيدًا في الفضاء

إن أنهكتك قوانين العالم الحمقاء

إن ضاقت السبل بك

وصارت الجاذبيّة مصدر شقاء

حلّق بعيدًا في الفضاء

إن سئمت أعين الناس وثرثرتهم وشكواهم

وصرت وحيدًا وسط المليارات

حلّق بعيدًا في الفضاء

إن عشت أكثر من حياة

وأكثر من شخصية

ولم تجد نفسك في كلّ الأدوار

حلّق بعيدًا في الفضاء.

إن صارت أحلامك ثقيلة

ومشاعرك باردة

وأفكارك محمومة من البقاء

حلّق بعيدًا في الفضاء

إن صار نهارك ليلًا وليلك نهارًا

وصارت كلّ فصول السنة سواءً

حلّق بعيدًا في الفضاء

إن أصبح الأمس ندبة تحملها في قلبك

والحاضر عبئًا على صدرك

والغد علامات استفهام لا تحمل جوابًا
اخلق من ضلوعك أجنحةً
واصنع عالمك الخاص
ودع الأرض تحترق خلفك
بأهوائها وملذاتها وكآبتها وأوهامها
وحلّق بعيدًا

***

أذكـر تلـك الحكمـة الفرنسـيّة: «الـزواج هـو الحـرب الوحيـدة التي تنام بها مع العدو».

الـزواج دون حـبٍّ هو عقـد بيع لجسـدك وقلبـك وعمـرك مقابل لقـب، فقـط لتثبت للعالـم بأنك لسـت وحيـدًا، حتّـى وإن كنـت آخر شـخص في العالـم، مضت أيّـامٌ علـى وجودي فـي منـزل جدّتي، لم اتّصل بالخالة سعاد، ربَّما أنّها لم تلمح وجودي بعد.

كم انتظرتك شادي؟

كم خاطرتك؟

كم عانقتك في خيالي، ولكنّ خيالي قد ضعف كثيرًا عن ذي قبل؟

كم بكيت لك ومن أجلك؟

كم تمنيتك وكم خشيتك؟

أخشى ألَّا تعود فأنسى عطرك وأنسى ملامح وجهك.

وأخشى أن تعود وأحبّك أكثر وأغرق بك أكثر.

لقد وضعتني بين خيارين كلاهما قاتل، فأنت لست موجودًا حتّى في أصدق لحظات وجودك!

كم أحببتك؟!

أحيتني وأنتَ لا تملك حياة.

وقتلتني وأنا على قيد الحياة.

دقّ جرس الباب، فتحت فإذا بالخالة سعاد شعرت وكأنَّها تكتشف خيانتي.

سارة، أنتِ بخير؟ لماذا لم تتصلي بي فور وصولك؟ سألتني بنبرة لوم.

كنت أفضّل أن أكون وحدي، كيف علمتي بوجدي؟ سألتها.

من حارس العقار، يبدو أنّك لم ترغبي في زيارتي، فأنتِ لم تدعوني للداخل حتّى الآن؟ قالتها وهي مصدومة.

آسفة خالة، لم أقصد حقًّا، سامحيني أرجوكِ تفضلي، احتضنتها ودعوتها للداخل.

سارة، أنا مثل والدتك أخبريني ماذا بكِ؟ أنا قلقة صغيرتي.. سألتني بصوت حزين.

لا أدري خالة لقد بحثت عن نفسي كثيرًا ولم أجدها، كيف يمكن لأرواحنا أن تغادرنا، ونحن ما زلنا أحياء؟

شعرت أن كلامي قد زاد من قلقها، نظرت إليّ نظرة طويلةً تحاول أن تقرأني، ثُمَّ بعد ما فشلت قالت لي:

لن أتركك وحدك سارة، ستقيمين معي حتّى وإن رفضتِ الزواج من كريم، أنتِ ابنتي شئتِ أم أبيتي.

أنا لم أرفض الزواج من كريم، أنا فقط رفضت التوقيت! أجبتها في لحظة يأس.

شعرتُ بفرحة خفيّة في عينيها، ثُمَّ بحماس أجابتني:

إذن دعينا نكتب الكتاب فقط ونؤجّل الزفاف، صدقيني سارة جدّتك سوف تسعد كثيرًا بهذا، فهي كانت أمنيتها أن تراكِ في الفستان الأبيض وتطمئن عليكِ.

هل تظنين أنَّها ستعرف بأمر زواجي؟ هل ستراني حقًّا في الفستان الأبيض؟ هل الأموات يعيشون بيننا؟

بالطبع بُنيتي كم حلمت بجدّتك كانت تُحدّثني بصوتها، وكانت تسمعني أيضًا، أوصتني بكِ كثيرًا، قالت لي: اعتني بـ سارة فقلبها حزينٌ.

سرحت قليلًا في جدّتي ودون أن أشعر أو أفكر قلت لها:

أنا موافقة على الزواج من كريم.

لـم أرَ الخالة سـعاد فرحـة هكـذا، عانقتنـي بقـوّةٍ وتركتنـي لتزف الخبر إلى كريم.

***

شـعرت بوجودهـا دون أن تشـعر بوجـودي، سـألت نفسـي هـل هي مـلاك ينتمي إلـى العالـم الآخـر، حتّـى رأيـت دموعهـا فأدركت أنّهـا من البشـر المُعـذّب فـي الأرض، رأيـت جمالهـا دون أن تراني، رأيتها تبتسـم، تبكي، تسـمع الموسـيقى، تقـرأ، رأيتها نائمة، سـعيدة، عابثـة، كنـت أطـوف حولهـا كفراشـة حـول الضـوء تلتمـس الدفء وتخشى الاحتراق.

سـارة.. نعم لقد تلاقـت أرواحنا قبـل أن تتلاقـى أجسـادنا بكثير، روحـك الشـفافة شـعرت بروحـي الأسـيرة، لمسـتني حتّـى القـاع، ولا أدري مَـن منـا كان قـادرًا علـى إخـراج الآخـر مـن شـرنقته، أحببتك دون أن تدري وقبل أن تقعي في حبّي.

كانـت طاقـة الحـبّ وحدهـا هـي القـادرة علـى تجـاوز حـدود العوالـم بيننـا، كان الحـبّ وحـده القادر علـى تحطيـم لعنـة فاطيما، فقد لمستك حيًّا أو ميتًا، شعرت بكِ كإحساسي الوحيد بالوجود.

سـارة.. يـا حوريـة الأرض هنالـك جمال يليـق بكِ خـارج حدود الكون، هنالك عوالم أخرى تطوف حولك تلتمس ابتسامتك.

يقولـون سـنظلّ سـويًّا حتّـى المـوت، ولا أدري إن كان ذلـك عن جهـل! فأرواحنـا خالدة قبـل المـوت وبعـده، فقـط أبعـاد العالم هي ما تتغيّـر حولنـا، حـدود رؤيتنا هـي ما تختلـف، أجسـادنا هـي ما قد تتبـدّل، ولكـنّ الموت ما هو سـوى حيـاة أخـرى لأرواحنـا، حياة بلا زمـن وبـلا سـاعات وبـلا مواعيـد، فاعـذري فـرق التوقيـت بيننـا حبيبتـي، فأنـا أنتظرك بلا وقـت، لـن أنتظرك لغـدٍ لأنّي لا أملـك الغد ولكنّي سأنتظرك للأبد!

***

يقـول أفلاطـون: «كلّ بدايـة لهـا نهايـة، وهـذه النهاية هـي البداية لشيء آخر»

بعـض النهايـات نكتبهـا وبعـض النهايـات تكتبنـا، فحين نمسـك بالقلـم لنخـط آخـر سـطور الحكايـة، فنحـن فـي معركـة حيّـة مـع أنفسنا!

هل الانسحاب في اللحظات الأخيرة ضعف أم قوّة؟

هـل النهايـات الحزينـة تعكـس وجعنـا أم أنّهـا نهايـات واقعيـة؟ هـل للقلـم حـقّ التغييـر والحـذف أم يظـلّ للقـدر الكلمـة الأخيـرة واليد العليا؟

ما أصعب النهايات حين نختارها، وما أقساها حين تختارنا؟!

ما أسـهل الكلمات حيـن تكتـب؟ ليس هنـاك أكرم مـن الأحلام، فهي لا تقول لا لأيّ فكرة!

أتودّ أن تُحلّق في الفضاء؟ أجعله حلمًا.

أتودّ أن تصبح ذا قوّة خارقة؟ أجعله حلمًا.

أتودّ أن تلتقي بنصفك الآخر؟ أجعله حلمًا.

فالأحلام مفتوحة على مصرعيها، يمكنك أن تزرع بها ما تشاء، فهي أرض خصبة لأفكارك، ستنبت دومًا بمزيد من الأحلام.

وعلى الجانب الآخر سوف تضحك كثيرًا الحياة، فهناك قواعد لأحلامك لم تدركها بعد، فحتّى وإن وافقك الحلم ستظلّ تلتمس من الحياة أن تنفخ فيه الروح، أو تبعثه حيًّا بعد الموت، الحياة لا تخسر أبدًا، ربَّما تعرض عليك صفقة لتربح حلمك، لكن لا بُدَّ وأن تدفع ثمنه، ولكلّ حلم ثمنٌ.

لا أعلم كيف استقبل كريم خبر موافقتي على الزواج منه، ولكنّ الخالة سعاد أكّدت لي بأنّه سعيدٌ للغاية.

في اليوم التالي زارني كريم، كانت عيناه تلمع بفرح، كان خجولًا كعادته، كم وددت لو كانت مشاعرنا أبسط؟ أو لو أنّنا نستطيع أن نُشكّلها كالصلصال، فنشتاق وقت ما نحبّ، ونحبّ مَن نريد أن نحبّ ونمحو من ذاكرتنا مَن رحلوا عنا وتركونا في غيابة الجبّ ليلتقطنا من هم مثل كريم، يمدّون أيديهم ونحن لا نشعر بهم ولا نراهم!

أودّ أن أشكركِ سارة، أعدكِ أنّكِ لن تندمي على قرارك، قالها كريم بصوتٍ خجلٍ.

علامَّ تشكرني كريم؟ الزواج قرارٌ مشتركٌ، أمَّا بخصوص الندم فلا أحد يدري، ربَّما أنت مَن تندم يومًا.

أشعر أنّكِ لستِ سعيدةً بزواجكِ مني، أن شئتِ يمكن تأجيل العُرس، شعرت باليأس قد عاد لصوته.

لن يكون هناك عرسٌ كريم، فجدّتي توفّت منذ أيّام، أخبرني ماذا تعني السعادة لك؟

ارتبك قليلاً، لا بُدَّ من أنّه كان ينتظر ردًّا آخر مني، ربَّما أكثر طمأنينة.

لا أدري سارة فكلّ منّا يرى السعادة من منظوره الخاص، البعض قد يراها في قصرٍ والآخر قد يراها في قطعة شوكولاتة.

وماذا عنكَ؟ فيمَّ ترى سعادتك؟ سألته.

أجابني بعد أن خرج من شرنقة الخجل قليلاً؛ أراها فيكِ سارة.

لستُ واثقةً كريم من أنّي سأمنحك السعادة التي تنتظرها، يقال إنّ فاقد الشيء لا يعطيه، وأنا أخشى عليكَ من الخذلان، إنّه أسوأ ما قد تمنحك الحياة!

أنـا أعرفـكِ جيّـدًا، ربمـا سـافرت منذ سـنوات، لكـن أعلـم أنّك مـن الداخـل بيضـاء كالثلـج، ولكنّـك عشـتِ حيـاةً قاسـيّةً أفقدتـك الأمل في كلّ شيء.

أشك في ذلك، فأنا نفسي لم أتعرّف إليها بعد.

سـاد صمت لبضـع دقائـق ثُـمَّ أنهـى حديثـه بـأنّ الخالة سـعاد قد حدّدت موعـد المأذون غـدًّا، وأنّـي لا بُـدَّ وأن اتّخـذ قرارًا جـادًا قبل الغدِّ إن لم أكن واثقةً في قراري.. ثُمَّ رحل.

كيف يُمكـن أن اتَّخـذ قـرارًا مصيريًّا فـي بضع سـاعات؟ وهل لي حقًّـا أن أختـار؟ ومـا هـو الاختيـار؟ أن أتـزوّج كريـم أم أن انتظـر أن يُطلق سراح شادي الموت؟

لـم أنـم تلـك الليلـة، فكـرتُ كثيـرًا فـي كلّ شـيء وفي لا شـيء، كان عقلي مُجهدًا وقلبي يشعر بالذنب!

في الصباح حضـرت الخالـة سـعاد ومعها فسـتان العـرس، لم يكن فسـتان عُرس بمعنـى الكلمـة، ولكنّـه كان فسـتانًا أبيـض رقيقًـا، ارتديه عندمـا يحضـر المـأذون، كانـت تبـدو فـي عجلـة مـن أمرهـا، تركـت الفسـتان وقالـت لـي جملـةً واحـدةً؛ اليـوم أنـتِ أميـرة وسـأتوّجك بيدي، ابتسمي كثيرًا فقد افتقدتُ ابتسامتك.. قبّلتني ورحلت.

لا بُـدَّ مـن أنّ كريـم قـد أخبرهـا بحديثنـا أمـس، فهـي تبـدو قلقةً وتحاول أن تُعجّل بمراسم الزواج قدر المستطاع.

كان يومًا ممطرًا.. لم تشرق الشمس وسط السحاب، كم عشقت رائحة المطر؟ رائحة الأرض الرطبة المملوءة بالحياة، أمطرت كثيرًا ربَّما تودّع السماء فصل الشتاء!

ارتديت الفستان ونظرت في المرآة، تخيّلت أنّي أطوّق شادي بذراعي، وأبي وأمّي ينظران إلينا في فرح، تخيّلت جدّتي تشاور لي بأنّي جميلة وأنّها سعيدة، ثُمَّ سقطت على سريري، شعرت ببعد الواقع عن خيالي، كم أنا بعيدة الآن؟

رأيت سقف الغرفة يتفتح أمامي كشاشة كبيرة، كبلورةٍ سحريّةٍ تكشف عالمًا آخر!

رأيت سماءً ونجومًا تتلألأ في جوف الفضاء، رأيت أمّي مُبتسمةً تمدّ أيديها، وأبي بجوارها يحتضنها، رأيت جدّتي تنظر إليّ في صمت.

رأيته هو.. كان هناك.. شادي.. ببدلته السوداء، بابتسامته الساحرة، بعينيه الغامضة الدافئة.

مددت يدي إليهم، ناديت كثيرًا، ولكنّ الدائرة أغلقت، واختفى كلّ شيء في لمح البصر!

بكيتُ كثيرًا، نزعت الفستان عنّي في غضبٍ شديدٍ، ملأت حوض الاستحمام، وسقطت فيه كقطعة حجر تلتمس القاع، هنالك عالم آخر في انتظاري.. عالم يخلو من كريم والخالة سعاد.

***

سبحت بعيدًا في عالم واسع وكأنّي أطفو في كوكب آخر دون جاذبية نحو الأرض، أناس كثيرة تطوف من حولي بأجسادٍ عاريّةٍ وأعين مُغلقةٍ، أماكنَ مُظلمةٍ وأماكنَ مضاءةٍ بنجوم تتلألأ كقطع من الماس، اقترب منّي طيف باهت نظرت إليه طويلاً حتّى أدركت أنّه هو.

شادي.. أنا هنا حبيبي قلت له وأنا أحاول أن ألمس وجهه.

كانت عيناه حزينةً نظر إليّ وقال:

لا حبيبتي ليس بعد.. أنتِ لا تنتمين إلى هنا.

ولكنّي معك الآن أنا أنتمي إليكِ.

سوف نلتقي حبيبتي، لكن ليس الآن وليس هنا.

ثُمّ أغلق عينيه واختفى.

شادي.. ناديتُ كثيرًا، ولكنّ صوّتي كان مخنوقًا وضعيفًا.

شعرتُ بيد تلمسني من خلفي، ثُمَّ سمعت صوتًا أوّل مرّة أسمعه، أطلقي رصاصة الحبّ على الوحدة.. سوف تكونين زوجةً رائعةً وأمًّا رائعةً.

جدّتي.. حاولت أن أعانقها، لكن كان هناك حاجز غير مرئي بيننا.

نظرتُ كثيرًا حولي شعرت أنّي تائهة وسط وجوه كثيرة لا أعرفها.

كان جسدي خفيفًا كريشة حتّى أنّي لم أشعر به.

أشـرق فـي عينـي نجـمٌ سـاطعٌ لـم أقـوَ علـى النظـر، ولكنّـي سمعتُ أصواتًا من جديدٍ.

أصواتٌ وكأنَّها تدور داخل رأسي.

كم أنّكِ جميلة سارة.. تمامًا مثل أمّكِ.

نظرت حولي كثيـرًا أبحث عـن مصدر الصـوت لكنّ الضـوء كان قويًّا لم أرَ شيئًا.

***

ارتفع صوت الإنذار في المكان:

كود بلو.. الرجاء الاتّجاه إلى الطوارئ.

ابتعدوا عن المكان من فضلكم.

ثلاثون ضغطة مرّة أخرى.

هيّا تحقّق من التنفّس من جديد.

لا فائدة.

أعطِ صدمةً كهربائيّةً.

انتظر.

أمبول أدرينالين.

ثلاثون ضغطة.. هيًّا!

الحمـد للـه عـاد النبـض.. ضعـوا المريضـة علـى جهـاز التنفّس الصناعي وانقلوها إلى العناية.

كيف الوضع دكتور؟ قالتها الخالة سعاد في قلقٍ.

لا تقلقي لقـد كُتـب لها عمـرٌ جديـدٌ.. لا بُـدَّ مـن أنّها كانـت فترة طويلة مختنقة تحت الماء.. هل أنتِ والدتها؟

والدتها متوفية، وأنا من أعتني بها.

إذن انتبهي أكثر لها قد تكون محاولة انتحار.

اقترب كريم من الخالة سعاد بعد رحيل الطبيب.

انتحار! هل فعلت ذلك لتهرب من زواجنا؟

قالها كريم للخالة سعاد في صدمة.

لا عزيـزي بالطبـع.. لا بُـدَّ مـن أنّهـا قـد غفـت وقت الاسـتحمام لا تجعل كلام الطبيب يُثير شكوك.. احمد الله على نجاتها.

الحمد لله أمّي.. كنت خائفًا كثيرًا أن أفقدها.

كنت أسـتمع إلـى كلّ شـيء وكأنَّـه حلم.. فتحـت عيني فـي غرفة المشـفى وأنا أشـعر بجهـاز التنفّس يخنقنـي أكثـر، كان رأسـي مُثقلًا ومُشوشًا.

سمعت صوت الخالة سعاد:

حمدًا لله على السلامة صغيرتي.. لقد توقّف قلبنا معكِ.

حاولت أن أرفع عن وجهي جهاز التنفس، ولكنّها رفضت وأمسكت بيدي.

لا عزيزتي.. اتركيه الآن لاحقًا سوف نتكلّم، أنا هنا بجوارك، لكن سأرحل بعد قليل، وأعود إليكِ في وقت الزيارة، فقد رفض المشفى الإقامة معكِ حتّى تخرجي من العناية المُركّزة.

كان هناك الكثير من المحاليل المُعلّقة.. لا بُدَّ من أنّ بها دواءً منومًا، فقد كنت ما أغفو قليلاً حتّى أجد الشمس قد غابت أو عادت من جديد فلم أدرِ كم مرّ من الأيّام في تلك الغرفة الكئيبة؟!

أتذكّر أنّي كنت أرى الخالة سعاد كثيرًا، ولكنّي لم أعلم متى كانت تأتي لزيارتي أو متى ترحل؟ فقد كنتُ معزولةً تمامًا عن العالم والوقت.

لم أرَ كريم طوال فترة مكوثي في المشفى.. بعد عدّة أيّام لا أدري عددها نُقلتُ إلى غرفة أخرى أكثر حياةً وبها تلفاز صغير وساعة أخيرًا.

حتّى أُطلق سراحي من هذا السجن بعد تحسّن وضعي وعدت مع الخالة سعاد إلى منزل جدّتي.. كان كريم ينتظرنا في السيارة، ومعه باقة من الزهور البيضاء.

حمدًا لله على السلامة سارة.. قالها كريم دون حتّى النظر إليّ... شكرًا كريم.. لا أذكر أنّك قمت بزيارتي في المشفى.

ردّت الخالة سعاد سريعًا:

لا حبيبتي كريم زارك أكثر من مرّة، ولكنّك دومًا كنت نائمة، حتّى أنّه أجّل سفره من أجلكِ.

كنت أشعر أنّ الخالة سعاد تكذب، ولكنّي لم أعلق كنت أعرف أنّه غاضبٌ منّي.

***

لم يكن وصلك إلا حلمًا في الكرى أو خلسة المختلسِ

موشح أندلسي

ضاق ثقب الخيال كثيرًا حتّى أحاطني الواقع من كلّ اتّجاه، فلم يعد هناك مجال للهرب.. تبخّرت الأحلام إثر احتراق الوصفة السحريّة للسعادة.

أعلنتُ هزيمتي أمام الموت! أمام الحبّ! أعلنت انتصار الحياة.

انتهى فصل الشتاء.. فصل الحنين.

فصل اللقاء الأوّل والوداع الأخير.

فصل البحث عن الدفء وسط رفات الذكريات.

وبدأ فصل آخر.. أكثر إشراقًا.

وبدأت معه حياة جديدة لزهور الأرض.

فصل شروق الشمس.. لا مزيد من السحب.

لا أثر لأمطار الأمس.

صباح الخير صغيرتي؟ كيف حالكِ اليوم؟ سألتني الخالة سعاد وهي تضع الفطور على الطاولة في غرفتي.

بخير خالة.. شكرًا لكِ على كلّ شيء لكن لا داعي لتدليلي هكذا، أودّ أن أفطر معكما فقد سئمت رقدة السرير.

بالطبع حبيبتي.

اجتمعنا على الطاولة أنا وكريم والخالة سعاد.. سألني كريم عن صحتي وكان يبدو عليه الحزن.

متى موعد سفرك كريم؟ سألته.

بعد يومين.

إذن يمكننا غدًّا أن ننهي إجراءات الزفاف.

شعرت أنّهما قد استغربا كلماتي لكنّ الخالة سعاد ما لبثت أن ابتسمت وقالت:

بالطبع سارة.. سوف اتّصل بالمأذون الآن لحجز موعدٍ غدًّا.

نظر كريم في دهشة ولم ينطق بكلمة.

كريم.. هل يُمكنني السفر معك.. أودّ أن أرحل من هنا!

نظر إليَّ كريم وهو لا يفهم شيئًا.

بالطبع لكن ماذا عن دراستك؟

لا بـأس فتلـك السـنة لـم أسـتطع حضـور الامتحانـات وسـوف أعيدها على أيّ حال.

شعرتُ بفرحةٍ في عينيه رغم اندهاشه.

سـوف أنهي كلّ الإجـراءات هناك فـور وصولي، وأخبـرك بتاريخ سفركِ.

في اليـوم التالـي حضـر المـأذون فـي الموعـد المُحدّد مـع كريم والخالـة سـعاد، خرجـت إليهـم وأنـا أرتـدي تنـورةً سـوداءَ قصيـرةً وقميصًـا أبيـضَ وشـعري مرفوع لأعلـي وكأنّـي في إحـدى مقابلات العمل.

نظرت إليَّ الخالة سعاد في دهشة همست لها في أذنها:

آسفة ولكنّي لم أستطع ارتداء الفستان.

قبّلتني في جبيني وقالت:

لا بـأس صغيرتـي أعلـم أنّـكِ مـا زلـت فـي حـدادٍ أنـتِ جميلـةٌ على أيّ حال.

لـم يكتـرث كريـم لمـا أرتديـه كان مُتحمسًـا للغايـة ينظر إلـيَّ في حبٍّ وفرحةٍ.

كان في قلبي غُصة تعتصرني كلَّما نظرت إليه، فكنت أعرف أنّي لن أحبّه أبدًا، وأنّ شادي سوف يظلّ بداخلي لآخر نفسٍ في صدري، وكلَّما ازداد عطفه وإظهار مشاعره زادت الغصة بقلبي.

بعد رحيل المأذون دعاني كريم لتناول العشاء في الخارج.. اتّجهت معه وأنا أشعر بأنّي أحد تلك الدُمى المُتحرّكة بخيطٍ ما لا أعرف مصدره.. تجمّد كلّ شيء بداخلي فلم أعد أشعر بشيء، وكأنّي تركت روحي في ذاك العالم الغريب في تلك الليلة التي فقدت فيها الوعي.

***

نحن ننضج حين نستطيعُ أن نتلوّن مع كلّ مشهد من الحياة.. حين يصبح الألم جزءًا منّا لا يكسرنا، نحن أقوى حين نفقد كلّ شيء، فلا يبقى ما نخاف على فقده، نحن أسعد حين نُحطّم ساعات الانتظار، نحن لا نخذل حين لا نضع كلّ أحلامنا في سلّة واحدةٍ.

سافر كريم اليوم التالي لكتب الكتاب، وسافرت أنا إلى الإسكندرية كي ألملم أشيائي من الشقة، فقد وعدني كريم أن يرسل لي تذاكر السفر في غضون أسبوعين على الأكثر.

فكّرت أن اتّجه إلى الجامعة لكي أفهم وضعي في الدراسة، ولكنّي أجّلت تلك الخطوة فيما بعد.

كانت ذكرى شادي لا تفارقني.. تمنّيت لو أنّي أراه لبضع دقائق، أن أشعر بأيّ شيء من طيفه أشد به أزري، ولكنّه قد رحل كما لم يرحل من قبل.. لم يترك أثرًا له حتّى في أحلامي!

عندما فتحت باب الشقة صُدمت.. كان كلّ شيء في الشقة محطمًا.. ملابسي مبعثرة في كلّ مكان.. آنية الزهر مكسورة تحت النافذة حتّى التلفاز كان مهشمًا.. دخلت الحمام كانت الأرض غارقةً بالمياه وقد بدأت تنجرف نحو الغرفة.

في البداية ظننت أنّ هناك لصًّا كان يحاول سرقة المكان وقت سفري، لكن لماذا يُحطّم كلّ شيء إذا كان بدافع السرقة؟

ثُمَّ أدركت أنّه هو.. شادي.

بكيت كثيرًا سقطت على الأرض وناديت عليه بصوت مخنوقٍ:

شاااادي.

أعرف أنّك غاضبٌ مني.

شاااادي لا شيء قادر على إرجاعك بين ذراعي.

لقد استسلمت شادي فاغفر لي.

كنت في حالة شديدة من الحزن واليأس.. استلقيت على السرير، احتضنت صورة أمّي وأبي ورحت في ثُبات عميقٍ.

استيقظت في الرابعة صباحًا كان كلّ شيء من حولي في حالة من الفوضى لا تسمح لي بالتفكير في أيّ شيء

لملمت ملابسي في حقيبة السفر دون تركيز، كنت أودّ أن أنهي كلّ شيء سريعًا وأرحل بعيدًا عن هذا المكان الذي يُجسّد الألم أمامي في كلّ زاوية.

أثناء عودتي في قطار السادسة صباحًا رأيتها في المقعد الأمامي، وقد عرفتها من انحناءة ظهرها وعكازها الخشبي المُميّز، اتّجهت نحوها وجلست في المقعد المجاور.. أهلاً خالة، هل تذكريني؟ سألتها.

بالطبع بُنيتي، أرى أنّ عقلك ما زال مشوشًا!

لم أتوقّع أن تذكرني سريعًا، نظرت إليها وتذكّرت جدّتي وددت لو أبكي على صدرها، ثُمَّ تماسكت قليلاً وسألتها؛ أتذكرين قولك لي أنّي سوف أجد راحتي في عالم ما، لقد حاولت الهرب إلى عالم آخر ولكنّي فشلت! ما زلت عالقة هنا في هذا العالم وحدي، ما زلت مُتعبةً كثيرًا.

نظرت إليّ بعطف شديد لم أشعر به منذ رحيل جدّتي.. يُمكنني قراءة عينيكِ صغيرتي، لكن حين أخبرتكِ بذلك لم أشأ أن تؤذي نفسك، لا بُدَّ أن تسير الأمور وَفْقًا لقواعد الحياة لا تكسري القوانين، وإلا الوجع سوف يصبح أضعاف ما أنتِ فيه الآن.

ولكنّه كان هنا حولي في كلّ شيء، كيف حطّم القوانين؟ كيف أحببته ولمسته دون شك؟ ثُمَّ رحل

دون وداع تركني أعاني نوبات الحنين، تركني وسط دوامة من علامات الاستفهام أعاني سكرات الجنون، أفتقده كثيرًا خالة كيف لي أن أراه؟

سألتها ودون أن أشعر بدأت في البكاء، عانقتني ووضعت يدها على شعري بطريقة غريبة وكأنَّها ترقيني، كانت تضغط على رأسي قليلاً ثُمَّ همست في أذني؛ سارة، ما كان لم يجب أن يكون! لقد تعذبت روحه كثيرًا فهو لم يكسر القوانين بل هي من كسرته!

رفعت رأسي ونظرت إليها كانت عيناها شاردةً لا تنظر إليّ وكأنَّها تقرأ ذرات الهواء، أنا لا أفهم شيئًا خالة، إذن أين هو الآن؟ لماذا لم أعد أراه؟

يموت السحر بموت الساحر وتنقلب اللعنات على البائس، تغلق البوابات وتعود الأرواح إلى سكنها وسكينتها حتّى يشاء القادر.

سكتت قليلًا ثُمَّ قالت:

لقد ارتاحت روحه صغيرتي، لكن لا تقلقي لكلّ لقاء ميعاد مُحدّد ولكنّنا لا نختاره.

***

حبيبي شادي:

باقي ساعة على انطلاق طائرتي.. هل تذكر حديثنا عن الغربة؟ لم تعد الغربة تلك الحدود التي تفصل البلدان عن

بعضها.. فقد ضاق بي الوطن الذي عشت عُمرًا به حتّى أنّه لم يعد يتسع الحزن بداخلي.

صار الهواء خانقًا في كلّ يوم أستيقظ به ولا أراك.. صارت الطرقات بعدك وكأنّي أخطو فوق فتات أفكاري.

ضاقت الإسكندرية بوسعها وفرغت القاهرة بزحمتها، ولم يعد لي مكان هنا.

انتظر الطائرة الآن كي تحملني إلى بلد آخر.. بلد لا يعرفني ولا أعرفه.. إلى مصيرٍ آخر ربَّما أكثر رأفةً.

هذه الرسالة هي الثالثة والستون.

بعدد أيّام رحيلك كتبت وبعددٍ أيّام عمري المتبقية سوف أكتب لك.

أُحبّك كثيرًا.

طويت الورقة ووضعتها في حقيبتي، ثُمَّ اتّجهت نحو باب الطائرة مُودّعة كلّ شيء خلفي.

***

مرّ عامان على زواجي من كريم، لم أزر مصر فيهما حتّى في زياراته السنويّة للخالة سعاد، كنت أرفض السفر معه.. رفضت العودة إلى الجامعة.. صرت أكتب عمودًا أسبوعيًّا في إحدى المجلات المغمورة.

كريـم كان رجـلًا عطوفًـا.. تحمّـل حماقاتـي، بـرودي وصمتـي الدائـم، كان يعـي جيّـدًا أنّـي لـم أحبّـه، ولكنّـه كان يكتفـي بالقليـل منـي، دائمًا مـا يحـاول أن يسـعدني ويلتمس لـي الأعـذار.. تُرى هل سيتمرد يومًا مُعلنًا انتهاء عطائه واستهلاك طاقته؟

كنـت أشـعر أنّ قلبـي قـد غُلـق إلـى الأبـد حتّـى تلـك اللحظـة عندمـا بـدأت تتحـرّك الحيـاة فـي رحمـي.. شـعرت بميـلادٍ جديـدٍ لجزء من روحي الذابلة.

زارتنـي الخالة سـعاد قبـل موعـد ولادتـي بأيّـام لترعانـي وترعى طفلي بعد الولادة.

عندمـا حانـت اللحظـة تألمـت كثيـرًا.. تمنيـتُ أن يكـون هنـا يمسـك بأيـدي.. تمنيـتُ أن يحمـل طفلـي ملامـح وجهـه، كنـت أصـرخ مـن ألـم السـنوات التـي مضـت وأنـا مـا زلـت أحبّـه.. حتّى سمعت صرخته عندما وضعته الممرضة بين يدي.

مبروك مدام ولد جميل!

حملته بيـن ذراعي وتحسّسـت وجهـه في حبّ.. سـمعتُ همسًـا في أذني أشبه بالحلم حتّى سألتني الخالة سعاد:

ها حبيبتي.. هل اخترتِ اسمًا بعد؟

شادي.

السَّعيد
للنشر والتوزيع